

مركز دراسات الوحدة العربية

وقفية عبد المحسن القطان للقضية الفلسطينية

الصراع العربي ـ الإسرائيلي

مئة سؤال وجواب

بيدرو بريجر



مركز دراسات الوحدة العربية

وقفية عبد المحسن القطان للقضية الفلسطينية

الصراع العربي ـ الإسرائيلي

مئة سؤال وجواب

بيدرو بريجر

ترجمة: إبراهيم صالح

مراجعة وتدقيق: أكسم فياض

الفهرسة أثناء النشر ـ إعداد مركز دراسات الوحدة العربية

بريجر، بيدرو

الصراع العربي ـ الإسرائيلي: مئة سؤال وجواب/بيدرو بريجر؛ ترجمة إبراهيم صالح؛ مراجعة وتدقيق أكسم فياض.
١٥٨ ص. ـ (وقفية عبد المحسن القطان للقضية الفلسطينية)
ISBN 978-9953-82-485-7

١. الصراع العربي ـ الإسرائيلي. ٢. القضية الفلسطينية. ٣. الصهيونية. ٤. اليهود. أ. صالح، إبراهيم (مترجم). ب. فياض، أكسم (مراجع)

956.9405

العنوان الأصلي بالإسبانية

El conflicto palestino-israelí: 100 preguntas y respuestas
Pedro Brieger
(Buenos Aires: Capital Intelectual, 2010)

«الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن اتجاهات يتبناها مركز دراسات الوحدة العربية»

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «بيت النهضة»، شارع البصرة، ص. ب: ٦٠٠١ ـ ١١٣
الحمراء ـ بيروت ٢٠٣٤ ٢٤٠٧ ـ لبنان
تلفون: ٧٥٠٠٨٤ ـ ٧٥٠٠٨٥ ـ ٧٥٠٠٨٦ ـ ٧٥٠٠٨٧ (٩٦١١+)
برقياً: «مرعربي» ـ بيروت، فاكس: ٧٥٠٠٨٨ (٩٦١١+)
e-mail: info@caus.org.lb
Web Site: http://www.caus.org.lb

الطبعة الأولى
بيروت، شباط/فبراير ٢٠١٢



مركز دراسات الوحدة العربية

وقفية عبد المحسن القطان للقضية الفلسطينية

الصراع العربي ـ الإسرائيلي

مئة سؤال وجواب

بيدرو بريجر

ترجمة:

إبراهيم صالح

مراجعة وتدقيق:

أكسم فياض

المحتويـــــات

مما لا شك فيه أن الصراع العربي ـ الإسرائيلي يحظى باهتمام شعوب أمريكا اللاتينية الناطقة باللغة الإسبانية، لكنها كغيرها من شعوب العالم تجهل حقائق هذا الصراع جرّاء سيطرة الصهيونية على مختلف وسائل الإعلام التي تحاول وصم المقاومة الفلسطينية أنها مجرد مجموعات إرهابية تسعى إلى إلحاق ضربات موجعة بإسرائيل الدولة «الديمقراطية» الوحيدة في الشرق الأوسط بحسب زعمهم.

يعدّ هذا الكتاب أول عمل أكاديمي في جمهورية الأرجنتين ـ حيث للصهيونية نفوذ سياسي واقتصادي بارز ـ يكشف بوضوح أكاذيب الحركة الصهيونية، بخاصة مقولتها الشهيرة «أرض بلا شعب، لشعب بلا أرض»، كما يبيّن أن الكره نحو اليهود في الوقت الراهن ناجم عن الممارسات الإسرائيلية العنصرية تجاه الشعب الفلسطيني، ويبرّر عمليات العنف التي تقوم بها المنظمات الفلسطينية لتحرير الأراضي المحتلة، ويعدها مآثر بطولية ناجمة عن فشل اتفاقيات أوسلو نتيجة لعدم التزام الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة بتنفيذها.

هذا، ويصف الكتاب اتهام السلطات الإسرائيلية لكلّ من ينتقد ممارساتها بـ «العداء للسامية» ابتزازاً فكرياً، ويؤكد أن العمليات العسكرية التي ينفذها الجيش الإسرائيلي ضد المدنيين الفلسطينيين

تطهير عرقي، ويعدها أسوأ من ممارسات النظام العنصري السابق في جنوب أفريقيا، كما أنه يدحض الرواية الإسرائيلية التي كانت تقول إن الفلسطينيين قد تخلوا عن أرضهم بناء على طلب من الحكومات العربية، موضحاً أنها ثمرة للمجازر التي ارتكبتها الحركة الصهيونية بحق المدنيين العزل، وهو يفنّد الديمقراطية الإسرائيلية وينعتها بالديمقراطية الإثنية «Etnocrcia» ويعرّي حقيقة الأنظمة الإسرائيلية التي تعامل الفلسطينيين الإسرائيليين على أنهم مواطنون من الدرجة الثانية، وتحرم سكان الأراضي المحتلة من أدنى حقوقهم، ويقول: إن تسمية الدولة بـ «اليهودية» يتناقض مع المبادئ الأساسية للديمقراطية، كما يدحض زيف الادعاءات الصهيونية بشأن استخدام الفلسطينيين أطفالهم دروعاً بشرية، وينتقد تجاهل وسائل الإعلام العالمية للتظاهرات السلمية التي يقوم بها الفلسطينيون في مدن عدة، وذلك احتجاجاً على الاحتلال الإسرائيلي، بينما تركز على العمليات الاستشهادية بهدف الإساءة للمقاومة الفلسطينية.

وأخيراً، يشير إلى فقدان منظمة التحرير الفلسطينية لمصداقيتها بسبب تورط قادتها بالفساد، وعدم شرعية وجودها بالسلطة، لأن الانتخابات الديمقراطية أسفرت عن نجاح حركة حماس وقدرتها على تمثيل طموحات الشعب الفلسطيني.

بوينس آيريس ٢٠١٠

المترجم

تمهيـد

الكتاب الذي بين يديك ليس كتاباً تنظيرياً للصراع العربي - الإسرائيلي، إنه ثمرة للعديد من الحوارات التي أجريت مع أشخاص كانوا يقتربون مني بحثاً عن إجابات لأسئلة كثيرة، بعضها في منتهى السهولة، وأخرى بالغة التعقيد. هناك الكثير من الكتب التاريخية التي حللت الصراع وتفرعاته المتشعبة من المنظورين الإسرائيلي والفلسطيني. إذاً، لماذا هذا الكتاب من الأسئلة والأجوبة؟ الجواب إن هناك إجابات سهلة لأسئلة معقدة، وإن مثل هذا النوع من الكتب يتضمن بعض المفاتيح الهامة التي تساعد على إزالة الشكوك الأكثر شيوعاً. لا شك أن كل انتقاء فيه إجحاف، لأنه يحذف الكثير من الأفكار، لكن لا بدّ من التوضيح أن هذا الكتاب لا يتناول قضية الشرق الأوسط بعامة، وإنما الصراع الفلسطيني - الإسرائيلي بخاصة، فمثة سؤال لا يمكن أن تحيط بجوانب الصراع كلّه، لذا آمل أن يحفّز القراء على مواصلة القراءة وسبر غور هذه القضية.

يجرف الصراع العربي - الإسرائيلي معه عواطف «متضادة». إنني أعيشه وأتأثر به وأدرسه منذ ٣٥ عاماً، فمن الصعب التغلغل فيه بتفرعاته المختلفة بدون أن تبرز المسوغات الأخلاقية لطرف ضد الآخر، لهذا السبب ستجدون أن الكتاب يتجنب النعوت، لأنها

لا تساعد على توضيح البانوراما، كما أنه لايجيب عن السؤال إيجاباً أو سلباً، ولا يحدد من هو صاحب الحق، لأنّ من يقرؤونه يأملون أن يكون التحليل بعيداً عن الوصف أو التبرير.

إنّنا أمام حركتين مختلفتين، كل منهما بنت تاريخها وفقاً لحياتها الخاصة ومنطقها الداخلي، لقد انطلقنا من تجاربهما، وسعينا إلى إيجاد حلٍّ لمأساتهما الوحيدتين غير القابلتين للارتداد، مع أن تاريخهما قد تشابك لدرجة أنه لا يمكن الفصل بينهما.

وإذا كان لاستخدام الكلمات ثقل في أي نص، فإن هذا الثقل يتضاعف في المنطقة نتيجة للحروب والتأثير الغربي في وسائل الإعلام. وإن اصطلاح «الشرق الأوسط» غير صحيح من الناحية النظرية، شرق أوسط من ماذا؟ إنه أوسط بالنسبة إلى الأوروبيين في طريقهم إلى الشرق، أما بالنسبة إلى الذين يسكنون في المنطقة منذ القدم فإنهم يسمون الشطر الواقع غرب مصر بالمغرب، لأنه جغرافياً يقع في الغرب حيث يرون غروب الشمس، وفي مصر يسمون الشطر الشرقي بما فيه شبه الجزيرة العربية بـ «المشرق»، وهكذا فإن الاصطلاحات التقليدية تغلب على الدقة النظرية. يستخدم في هذا الكتاب تعبير الشرق الأوسط علماً أن استخدامه المجحف يضفي غشاوة على التعابير التي يستخدمها السكان الأصليون للمنطقة منذ قرون.

لا شك أن أكثر جوانب الصراع الفلسطيني ـ الإسرائيلي تعقيداً يتمثل في الحفاظ على «الحياد» في استخدام الكلمات بمضمون سياسي رفيع المستوى.

تتجلى إحدى أهم ميزات هذا الصراع في المعركة الإعلامية الدعائية، فكل مصطلح يشكل جزءاً من لعبة ديالكتيكية تسعى إلى

فرض مفهومات محددة في وسائل الإعلام الجماهيرية، وقد يصعب على المرء اختيار طريق يبتعد فيه عن الوقوع في مصيدة الدعاية لأحد الطرفين، فلا وجود للكلمات الحيادية، وكما يقول أحد الصحفيين: ليس من السهل كتابة خبر صحفي بدون التحيز لطرف ضد الآخر: «اليوم في يهودا والسامرة/في الأراضي الفلسطينية/في الأراضي المحتلة/في الأراضي المتنازع عليها/في الأراضي المحررة/ثلاثة فلسطينيين أبرياء/إرهابيون مسلمون تم تصفيتهم بصورة استباقية/تم إعدامهم بوحشية/اغتالهم العدو الصهيوني/من قبل قوات الاحتلال الإسرائيلي/من قبل قوات الدفاع الإسرائيلي». يبدو وكأنه تدريب على نطق كلمات مستعصية على اللفظ تعكس الصعوبات التي يواجهها الصحفيون والأكاديميون في نقل الخبر، أو أثناء تحليل ما يجري هناك، بخاصة أثناء محاولة التقيد بالموضوعية. علماً أن الموضوعية غير موجودة في العلوم الاجتماعية.

تتجلى إحدى صعوبات دراسة الشرق الأوسط في أسلوب ترجمة ونقل الأسماء، وقد استخدمت في هذا الكتاب قاعدة التهجئة من العربية أو العبرية إلى الإسبانية، وتفاديت الإنكليزية أو الفرنسية، وهما اللغتان اللتان كثيراً ما تستخدمان في وسائل الإعلام.

لقد تمّ إعداد الأسئلة بعد تبادل الأفكار مع أشخاص وأساتذة وطلاب كثر كانوا يطرحون استفساراتهم حول الصراع الفلسطيني - الإسرائيلي، وأخص بالذكر طلابي في قسم علم الاجتماع الخاص بالشرق الأوسط في جامعة بوينس آيرس، وأشكرهم لتحذيراتهم بشأن استخدام الكلمات والمفهومات التي غالباً ما يكون وراءها معان أيديولوجية عميقة، وفي نفس الوقت أؤكد بأن مسؤولية الإجابات تتجاوز إرادة التعاون لجميع هؤلاء.

ولإيجاد حلّ للمشاكل الأكثر استعصاء، أود أن أستعين بالفيلسوف Baruj Spinoza الذي كتب منذ ٤٠٠ عام «لا للضحك، لا للبكاء، نعم للاستيعاب». آمل أن يساعد هذا القول القرّاء على التفكير مرات عدة، والتأمل فيما قاله الكاتب الفلسطيني اميل حبيبي «محرقتكم نكبتنا».

بيدرو بريبجر

Pedro Brieger

١ ـ لماذا الصراع بين الفلسطينيين والإسرائيليين؟

يكمن جوهر المشكلة بوجود شعبين يعيشان في نفس الأرض، كل منهما يعدّها ملكه الخاص، فالإسرائيليون يعدُّونها ملكاً لهم، ويقولون: إن الله وعدهم بها في العهد القديم وقد سكنوا فيها على الدوام، أما الفلسطينيون فيعتبرونها أرضهم لأنهم يقطنون فيها منذ قرون.

يرى الإسرائيليون إقامة دولة إسرائيل بمنزلة ردّ على الاضطهاد الذي تعرض له اليهود طوال تاريخهم، وهي الضمانة الوحيدة لئلا يتعرضون للملاحقة مرة أخرى.

إن اليهود الأوروبيين ـ أصحاب فكرة إقامة الدولة اليهودية في القرن التاسع عشر ـ لم يبدوا اهتماماً يذكر بوجود شعب آخر في فلسطين، وتركّز انشغالهم الأساسي على حل مشكلة الاضطهاد ضد اليهود. لذا لابد من الإشارة ـ ولا سيما في بداياتهم ـ إلى معرفتهم الضحلة بما كان يجري في الشرق الأوسط، ذلك العالم شبه المجهول من قبل أغلبية الأوروبيين. فالقليل الذي كانوا يعرفونه، عرفوه عبر شهادات بعض المغامرين الذين كانوا يجرؤون على السفر وكتابة الروايات حول أسفارهم أو عبر المؤرخين ممّن كانوا يرافقون الغزوات العسكرية.

أما بالنسبة إلى العرب الفلسطينيين فلم يكونوا يعرفون إلا ما ندر

عمّا كان يدور في أوروبا أو حول حملات الاضطهاد ضد اليهود، إذ لم يشكل هؤلاء جزءاً من التجارب الاستعمارية التي احتلت مختلف أرجاء الكرة الأرضية، بل على العكس فقد عانوها، وفي أوائل القرن العشرين لم يكن لديهم سبيل إلى معرفة الوطن العربي الذي كانوا يجهلونه.

في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، بدأ آلاف اليهود يتوافدون إلى فلسطين وفي أذهانهم فقط إقامة دولة لليهود. حين شعر العرب الفلسطينيون أن اليهود يريدون أن ينتزعوا منهم فلسطين، حاولوا منعهم إلا أنهم لم يفلحوا. وهكذا ولدت دولة إسرائيل التي منحت أولئك اليهود هوية جديدة وعرفوا فيما بعد بالإسرائيليين أو اليهود الإسرائيليين.

إن أغلبية الإسرائيليين يفضلون ألّا يكون بينهم عرب في هذه الأرض التي يعدّونها ملكهم الخاص، لكنهم حاضرون. وأغلبية الفلسطينيين يؤثرون ألّا يوجد بينهم يهود، إلا أنهم موجودون. الصراع مستمر إلى يومنا هذا نتيجة لغياب الاتفاق حول قطعة الأرض التي تخص كل طرف، أو حول التعايش المشترك فيها.

٢ ـ ما الذي غيّر التعايش بين اليهود والعرب طيلة قرون؟

عموماً، كان يغلب الطابع الديني على العلاقة بين اليهود والعرب طيلة قرون. ونظراً إلى اعتناق أغلبية العرب الديانة الإسلامية، فإن علاقاتهم مع اليهود كانت وما تزال علاقة دينية، سواء أكان على المستوى الفردي أم الجماعي، وهنا لا بدّ من الإشارة إلى أن أغلبية المسلمين ليسوا عرباً ولا ينطقون العربية إلا أثناء إقامة الصلاة، فمثلاً إندونيسيا أكبر بلد إسلامي في تعداد السكان أيضاً ليست عربية، والأمر نفسه ينسحب على تركيا وإيران، لكن ولادة

الإسلام في أرض عربية تجعل البعض يخلطون بين المسلمين والعرب.

ربّما يكون غير صحيح أن نقدم صورة مثالية لعلاقة يسودها الانسجام بين اليهود والمسلمين إذا ما استحضرنا بعض المشاكل التي وقعت بينهم عبر التاريخ، لكنه لا بدّ من التركيز على عدم وجود ما يشابه عمليات الإبعاد الجماعي لليهود في إسبانيا أثناء حكم الملك فيرناندز والملكة إيزابيل، وذلك في أواخر القرن الخامس عشر في إطار ما سمّي آنذاك بمحاكم التفتيش المقدسة، كما لم يحدث ما يماثل حملات الاضطهاد والقتل ضد اليهود في روسيا خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، التي حولت كلمة Pogrom من أصل روسي إلى مرادف للاضطهاد والمجزرة ضد اليهود، وعلاوة على ذلك فإن مصطلح معاداة «السامية» الذي يفهم بمعنى الكره نحو اليهود، هو مصطلح أوروبي ليس له مقابل باللغة العربية. وفي المناطق التي تقطنها أغلبية مسلمة لم تقع أحداث يمكن مقارنتها بالهمجية العصرية والصناعية المنظمة لإبادة اليهود في أوروبا، وذلك في مراكز التعذيب التي أبادت ستة ملايين يهودي.

لقد تغير التعايش بين اليهود والعرب في الشرق الأوسط في أواخر القرن التاسع عشر مع انطلاق الحركة الصهيونية التي طرحت فكرة إقامة دولة لليهود فقط في قلب الوطن العربي والإسلامي.

٣ ـ ما هي الحركة الصهيونية؟

ظهرت الحركة الصهيونية للعيان في أوروبا الغربية في أواسط القرن التاسع عشر رداً على حملات الاضطهاد التي كان يتعرض لها اليهود في أوروبا الغربية والشرقية، وقد عرّفت نفسها بـ «حركة التحرير الوطني للشعب اليهودي».

رأى مؤسسوها أن الطريق الوحيد للتخلص من معاداة «السامية» هو تمركز يهود العالم في دولة واحدة، وكانوا يعتقدون أن كره اليهود أزليّ ولا يمكن تفاديه، وقد أكد Leon Pinsker أحد قادة الحركة أن البغضاء لليهود «مرض عقليّ وراثيّ غير قابل للشفاء». هذا وقد تأثر تيودور هيرتزل الصحفي النمساوي من أصل هنغاري بمحاكمة اتسمت بمعاداة اليهود في فرنسا عام ١٨٩٤ التي جرت ضد النقيب Alfred Dreyfus إذ حكم عليه بالسجن بتهمة «الخيانة العظمى»، إلا أن قراراً بالعفو عنه صدر بعد عدة سنوات إثر إثبات براءته.

لقد أطلقت الثورة الفرنسية وعوداً بتحقيق المساواة بين جميع المواطنين، لكن الملاحقات ضد Dreyfus استمرت كونه يهودياً. وفي عام ١٨٩٦ أصدر هيرتزل كتاب Der Judenstaat «دولة اليهود» كان بمثابة حجر الأساس للصهيونية السياسية.

كانت هذه المجموعة من المفكرين اليهود تعرف العالم فقط من خلال أوروبا، إذ عمل معظم اليهود في التجارة والسمسرة والصيرفة طيلة قرون. لم يعرفوا إلا القليل عن اليهود في الوطن العربي، وكان هيرتزل يرغب بتحويل الشعب اليهودي الأوروبي إلى برجوازيين وعمال وفلاحين أسوة بالشعوب الأخرى، وذلك وفقاً لمفهوم التطور الرأسمالي آنذاك.

ونظراً إلى تأثر مؤسسي الحركة الصهيونية بالفكر الأوروبي، ارتأوا أن المخرج الوحيد لمكافحة معاداة «السامية» هو إقامة دولة يهودية. لم تكن الصهيونية بدعة إنكليزية لتقسيم الوطن العربي مع أنها نشأت في حقبة التوسع الرأسمالي والاستعماري للدول الأوروبية العظمى التي أقامت الحركة الصهيونية معها علاقات وطيدة، وذلك بسبب حاجتها إلى دعم قوى عالمية كبرى للسيطرة على تلك الأرض

التي لم يسكنوها. وأتت الحركة الصهيونية ذات الجذور الغربية كالخاتم في الإصبع بالنسبة إلى الإنكليز، لأنهم كانوا يحتاجونها لاختراق المنطقة.

لقد واجهت الصهيونية مشكلتين أساسيتين منذ تأسيسها، الأولى أنها لم تحاول تأسيس دولة يهودية في مناطق من روسيا وبولونيا حيث كانت تتواجد فيها أغلبية يهودية، وكان بإمكانها أن تطالب بأرض لليهود استناداً إلى حق تقرير مصير الشعوب، والثانية أنها اقترحت إنشاء دولة في مكان لم يكن فيه عملياً شعب يهودي، ولم يكن بدون شعب، كما ادعت الحركة الصهيونية آنذاك.

٤ ـ هل جميع اليهود يؤيدون المشروع الصهيوني؟

لا شك أن الغالبية الساحقة من يهود العالم يؤيدون دولة إسرائيل التي ولدت عام ١٩٤٨، لكن ذلك لا يعني أنهم كانوا يدعمون الحركة الصهيونية قبل ١٩٤٨. وعلاوة على هذا، كان النقاش حول الصهيونية حاداً ومثيراً للنزاع بين اليهود. لقد واجهت فكرة قيام الدولة اليهودية رفضاً واسعاً أثناء ولادتها من قبل المتدينين ومختلف التيارات الفكرية الاشتراكية.

اعتقد المؤمنون من اليهود أن الحركة الصهيونية تنزع منهم الأسس اليهودية للتقاليد الدينية، أما أولئك الذين انضمّوا إلى الحركات الاشتراكية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين فكانوا على قناعة بفكرة النضال ضد العداء لـ «السامية» داخل الدول التي يقيمون فيها، وأن الاشتراكية كانت كفيلة بتحررهم، لذلك عارضوا الهجرة إلى فلسطين. وعلى الرغم من حملات الاضطهاد التي تعرّض لها اليهود في أواخر القرن التاسع عشر في كلٍّ من روسيا

وبولونيا وأوكرانيا، فلم يهاجر إلى فلسطين إلا ما يقارب ٣ ٪ من يهود تلك الدول، وأن أغلبهم قد تبعثر في أنحاء العالم، وخلال خمسة عشر عاماً تحولت نيويورك إلى أهم مدينة يهودية في العالم.

ومن جهة أخرى، كانت الصهيونية تطرح إعادة إحياء اللغة العبرية من جديد (اللغة التي كانت تستخدم في الابتهالات)، وكان اليهود المقيمون في أوروبا الشرقية ودول البلطيق وأوكرانيا وروسيا يتكلمون لغة مشتركة تدعى Idish، وهي لغة يهودية بحتة غنية بالأدب والموسيقا والتقاليد الثقافية، ولم يكونوا على استعداد للتخلّي عنها.

تعددت المنظمات اليهودية التي كانت تدعو آلاف اليهود - الذين كانوا يرفضون الأفكار الصهيونية - للتظاهر ضدها، وكان حزب Bund (الاتحاد العام للعمال اليهود في ليتوانيا وبولونيا وروسيا) الصهيوني أكبر الأحزاب وأهمها في ذلك الحين، لكن هذا «العالم اليهودي» الذي عرف باسم Idishland (أرض إيديش) قد أزيل عن وجه الأرض إثر المحرقة النازية(*).

كان تعداد اليهود في أوروبا قبل الحرب العالمية الثانية حوالى تسعة ملايين، ثم انخفض إلى ثلاثة ملايين بعد المحرقة ليعيشوا مبعثرين ومشتتين في أنحاء العالم. وما يثير الغرابة حالياً هو وجود مجموعات يهودية متدينة واشتراكية خارج وداخل إسرائيل لا تؤيد الأيديولوجية الصهيونية، ولا دولة إسرائيل، لنفس الأسباب التي لم يؤيدها آخرون قبل مئة عام.

(*) النازيون التقوا مع الصهاينة في عام ١٩٣٣، وعقد الطرفان إتفاقية «هاعفرا» جرى بموجبها تهجير ٥٤ ألف شاب وفتاة ألمان إلى فلسطين (المحرّر).

٥ ـ هل العداء لـ «السامية» هو نفسه العداء للصهيونية؟

يرى بعض المؤرخين أن اصطلاح «العداء للسامية» يقتصر فقط على كره أو ملاحقة جميع أولئك الذين يتحدرون من أصل سامي، وعموماً ما يعرف بالكره تجاه اليهود. أما «العداء للصهيونية» فيتمثل في الرفض السياسي للأيديولوجية الصهيونية. حتى إقامة دولة إسرائيل كان العداء للصهيونية يقتصر على اليهود الذين لم يقتنعوا بأن مشاكلهم التاريخية قد تجد حلاً بإقامة دولة يهودية. ارتأى بعضهم أن على اليهود الاندماج في البلدان التي يعيشون فيها والتخلي عن هويتهم الخاصة واعتماد هوية الأغلبية المحيطة بهم، وعدّ البعض الآخر، ولا سيما اليساريون، أن الاشتراكية والمساواة بين الشعوب ستزيل أشكال التميز كلها، بما فيها التمييز ضد اليهود، وكان هناك متدينون يقولون إن على اليهود أن ينتظروا وصول المسيح الذي سيخلّص الشعب اليهودي.

وبعد قيام دولة إسرائيل بقيت هذه المفهومات قائمة من الناحية الأيديولوجية، لكن طرد الفلسطينيين عام ١٩٤٨ واحتلال الضفة الغربية وقطاع غزة عام ١٩٦٧ أدى إلى تنامي الرفض لسياسات إسرائيل داخل الكثير من التيارات اليسارية، لكن غالباً ما تذوب الفروقات بين الانتقادات الموجهة إلى إسرائيل التي توجّه ضد اليهود بصورة عامة. كانت الصور الكاريكاتيرية التي تنشرها الصحف آنذاك، ولا سيما العربية تصوّر اليهودي «متعطشاً لسفك الدماء»، ويحاول الهيمنة على العالم، كما كانت تصوره الكتب والمنشورات الأوروبية المعادية لليهود في أوائل القرن العشرين.

قد يبدو الخط الذي يفصل بين العداء للسامية والعداء للصهيونية رفيعاً في بعض الحالات، إلا أنه ثخين جداً في حالات

أخرى لأنه يمثل أفكاراً متضادة، فأغلب المنظمات اليسارية الأوروبية على سبيل المثال لا تسمح للمجموعات المعادية لـ «السامية» ـ التي ترفضها وتكافحها ـ المشاركة في المظاهرات التي تنظمها ضد السياسات الإسرائيلية. ليس صحيحاً من الناحيتين العملية والنظرية مقارنة معاداة الصهيونية بمعاداة «السامية»، **كما أنه لا يجوز نعت من ينتقدون إسرائيل أو السياسة الإسرائيلية، أو من يشكك بشرعية دولة** إسرائيل، أو لمجرد التفكير أن على اليهود والفلسطينيين أن يعيشوا في دولة واحدة، أنهم يكنون العداء للسامية، لكن الحكومات الإسرائيلية تربط عمداً بين كلا المفهومين للتشويش والتقليل من شأن الانتقادات لسياساتها.

٦ ـ هل يمكن عدّ كل من ينتقد إسرائيل معادياً لـ «السامية»؟

لقد استخدمت إسرائيل دوماً ذريعة معاداة «السامية» واليهود بوصفهم ضحية أزلية للجم انتقادات ممارساتها ضد الفلسطينيين، وبلغ الأمر برئيس الوزراء السابق ميناحيم بيغن أن يبتهل إلى مراكز إبادة اليهود في ألمانيا لتبرير الغزو الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢. إن اتهام كل من ينتقد إسرائيل بمعاداة «السامية» هو ابتزاز فكري، ويؤدي غرضه بسبب الشعور بالذنب الجماعي الناجم عن المحرقة اليهودية خلال الحرب العالمية الثانية، وقد تم توظيفه أيضاً للتقليل من أهمية انتقادات القادة العرب والفلسطينيين وحتى اليهود الذين يشككون بالسياسات الإسرائيلية، وكأن هناك خيطاً يصل بين سياسة الإبادة الجماعية في ألمانيا النازية وأي انتقاد لدولة إسرائيل.

ترى المؤرخة الإسرائيلية **Idith Zertal** في كتاب لها بعنوان «الأمة والموت» أن إسرائيل تنعت أعداءها كلهم بأنهم نازيون،

وتضخم أي تهديد وتجعله مرادفاً لإبادة شاملة، وكانت تجد جمال عبد الناصر وياسر عرفات استمراراً لأدولف هتلر.

وحين ينتقدها اليهود أنفسهم فإنها تقلّل من أهمية انتقاداتهم وتقول عنهم «إنهم يضمرون الكره الذاتي»، إنها عبارة تخلو من أي معنى. هذا وقد تعرضت الصحفية والكاتبة Hannah Arendt إلى تهمة الكره الذاتي في الستات إثر نشر كتابها بعنوان Eichmann في القدس، وشنّت مجموعة من المنظمات الصهيونية في الولايات المتحدة الأمريكية حملة علنية للإساءة إلى سمعتها. ومن الجدير بالذكر أنه وقبل إقامة دولة إسرائيل كان هناك عدد من المفكرين اليهود في فلسطين بقيادة الفيلسوف Martin Buber يعارضون قيام الدولة اليهودية، وقد ناضلوا من أجل دولة موحدة تضم اليهود والعرب معاً. وفي الوقت الراهن توجد في إسرائيل حركات سياسية يهودية (يسارية ودينية) تعلن جهراً أنها ضد الصهاينة. وأبرز مثال على ذلك هو المنظمة الاشتراكية الإسرائيلية المعروفة باسم صحيفتها Matzpen، تتكون هذه المجموعة من يهود إسرائيليين، وقد اكتسبت شهرة خلال الستينيات والسبعينيات بسبب انتقاداتها لإسرائيل ومعارضتها للصهيونية واتصالاتها مع منظمة التحرير الفلسطينية، وكانت تؤيد إقامة دولة تضم اليهود والفلسطينيين وحلَّ الدولة اليهودية بصيغتها الحالية. لا هؤلاء ولا Hannah Arendt كانوا يكنّون أي نوع من العداء لـ «السامية».

بعد أشهر من الغزو الإسرائيلي لقطاع غزة عام ٢٠٠٨، أوفدت الأمم المتحدة إلى القطاع القاضي اليهودي ريتشارد غولدستون ـ المعروف بسيرته الأخلاقية ـ للتحقيق فيما إذا ارتكبت إسرائيل انتهاكات لحقوق الإنسان خلال عملية الغزو، وما إن أنهى تقريره الذي أدان فيه كلاً من إسرائيل وحركة المقاومة الإسلامية حماس حتى

بدأت حكومة نيتنياهو حملة إعلامية ضده واتهمته بالعداء للسامية وإضمار الكره الذاتي، بالرغم من ترأسه خلال عدة سنوات لمنظمة ORT العالمية التي تعدّ من أهم شبكات التربية اليهودية في العالم.

٧ ـ لماذا اختار اليهود فلسطين لإقامة دولة يهودية؟

عندما بدأ مؤسسو الحركة الصهيونية التفكير في دولة يهودية خارج حدود أوروبا، تساءلوا أين يمكن أن يتحقق حلمهم. بما أن للتاريخ اليهودي صلة قوية بالدين والإنجيل وأن جذور ذلك التاريخ متواجدة في الشرق الأوسط، قرروا أن يكون المكان الملائم فلسطين، بالرغم من ندرة ما كانوا يعرفونه عن هذه المنطقة التي كانت ترزح تحت سيطرة الإمبراطورية العثمانية في أواخر القرن التاسع عشر. كانت فكرتهم تكمن في العودة إلى أرض الأسلاف المعروفة باسم «أرض إسرائيل» أو صهيون كما وردت في الإنجيل. انطلقوا من الفرضية القائلة: إن اليهود قد طردوا من هناك في الزمن القديم وإن الإنجيل كان نوعاً من سند التمليك الذي يمنحهم الحقوق كافة في هذه الأرض من أجل العودة. كانوا يعلمون عبر روايات المسافرين بوجود تجمعات من اليهود في القدس وصفد، إذ تشكل المدينتان استمرارية للوجود اليهودي في هذا المكان، وحلقة وصل مع التاريخ القديم، بالرغم من أن تعداد اليهود في مصر وسورية والعراق آنذاك كان أكثر مما هو عليه في فلسطين.

كانت الفروق جليّة بين اليهود الأوروبيين وأولئك الذين يعيشون في أراض تابعة للإمبراطورية العثمانية التي حملت رسالة الإسلام إلى العديد من المناطق خارج الشرق الأوسط. كان المفكرون الصهاينة أوروبيين وعلمانيين، وقد تأثروا بالأفكار القومية والاشتراكية

الأوروبية، أما الآخرون فكانوا يهوداً مؤمنين يتمتعون بالحريات الدينية التي منحتهم إياها الإمبراطورية العثمانية، ولم يشعروا بجاذبية نحو حركة علمانية تطرح فكرة قومية مجهولة، وعلاوة على ذلك كانوا مخلصين للأفكار الدينية، ويعتبرون خلاصهم مأثرة سوف تتحقق حين قدوم المسيح الذي سيصل في يوم من الأيام.

تساءل هيرتزل في كتابه دولة «اليهود» إذا كانت فلسطين المكان الأنسب لبناء دولة، أو إذا كان بالإمكان اختيار الأرجنتين، لكن سرعان ما استبعدت الحركة الصهيونية الخيار الثاني لأنه لم تكن هناك أية علاقة ملموسة مع تلك الأرض النائية، أما فلسطين فكانت تعدُّ «الوطن التاريخي الذي لا ينسى»، كما كانوا يودون تسميتها بذلك. وبما أن الحركة الصهيونية كانت متأثرة بالرؤية الكونية الأوروبية والأفكار الاستعمارية، فإن في اختيار فلسطين مظهراً نفعياً بغية إقامة علاقات مع القوى العظمى في ذلك الوقت، لا سيما أن هيرتزل كان يعتبر الحركة الصهيونية طليعة ثقافية ضد الهمجية في آسيا.

٨ ـ ما معنى عبارة «شعب بدون أرض، لأرض بدون شعب»؟

تمثّلت إحدى المشاكل الأساسية للحركة الصهيونية في اختيار مكان تقطنه أقلية يهودية نتيجة لتأثر مؤسسيها بالأفكار الأوروبية، التي كانت تأمل أن ينعكس التوسع الاستعماري إيجاباً على كوكب الأرض، وكانوا يعتقدون أن سكان الشرق الأوسط سيستقبلونهم بحفاوة بوصفهم يحملون رسالة الحضارة والتقدم. كانت أوروبا تعتبر نفسها مركز إشعاع للعالم وأن التقدم في أية منطقة مرادف للنمو الذي يجلبه الأوروبيون، وأن أغلبية المفكرين الاشتراكيين كانوا يؤيدون هذا الرأي. كتب كارل ماركس مرّة: كان من الأفضل أن

تكون الهند واقعة تحت سيطرة البريطانيين قبل الفرس أو الأتراك أو الروس، وأن «المجتمع الهندي يفتقر كلياً إلى التاريخ المكتوب»، وكأنّ تاريخ هذه الشعوب ليس له معنى إذا لم يكن على تواصل مع العالم الأوروبي.

إن اصطلاح «شعب بدون أرض، لأرض بلا شعب» هو استمرار لهذا التفكير الذي يعدّ سكان بلد ما غير مؤهلين لتحقيق أي شكل من أشكال التقدم. وهكذا يبلغ الازدراء تجاههم إلى درجة تجاهلهم وحرمانهم من الحقوق كافة، وقد أصاب فرانتز فانون المفكر الفرنسي المناهض للاستعمار في عرض هذا التفكير في كتابه «البشرة السوداء والأقنعة البيضاء» الذي خصصه للمستعمرين السود عموماً. استناداً إلى هذا المنطق فإن الشعب اليهودي الذي لم يكن له أرض سيقوم بتطوير هذه المنطقة التي كانت خالية من شعب منظم كأمة بالمعنى الأوروبي للاصطلاح.

قلّة ضئيلة من زعماء الحركة الصهيونية كانوا يدركون أن الواقع في فلسطين كان مغايراً للنظرية والأحلام. في عام ١٩٠٧ طرح Isaac Epstein (أحد قادة الحركة الصهيونية) المشكلة قائلاً: «ناقشنا القضايا كافة، لكن غاب عن أذهاننا الأمر التالي: يوجد في أرضنا الحبيبة شعب كامل ومتمسك بها منذ مئات السنين ولم يفكر قط بالتخلي عنها».

بغضّ النظر عمّن نطق عبارة «شعب بدون أرض، لأرض بلا شعب» للمرة الأولى، فقد تحولت هذه العبارة إلى إحدى الأساطير المؤسسة لدولة إسرائيل لإضفاء صبغة من الشرعية على استعمار فلسطين. حين وصل اليهود وجدوا ما يقارب ألف بلدة ومدينة وآلاف

الهكتارات المزروعة والسكك الحديدية التي شيدها العثمانيون. هذا يعني أنهم كانوا يعلمون بوجود شعب في تلك الأرض، ولم يكن هناك سبيل لبناء دولة يهودية بدون الاصطدام مع السكان المحليين.

٩ ـ لماذا تقاسم البريطانيون والفرنسيون الشرق الأوسط عام ١٩١٦؟

احتلت الإمبراطورية العثمانية الجزء الأكبر من الشرق الأوسط خلال ٤٠٠ عام، وقسمته إلى ولايات تابعة. ومن أجل السيطرة على المناطق الغنية بالثروات الطبيعية، شرع البريطانيون والفرنسيون في اختراق الشرق الأوسط في القرن التاسع عشر، إذ بدأ الفرنسيون باحتلال الجزائر عام ١٨٣٠ إلى أن تم طردهم في عام ١٩٦٢، وقام البريطانيون بتدشين قناة السويس عام ١٨٦٩ في الأراضي المصرية التي ظلت تحت سيطرتهم حتى عام ١٩٥٦ حين أممها جمال عبد الناصر.

لقد تمخضت الحرب العالمية الأولى عن انهيار الإمبراطورية العثمانية وسيطرة الفرنسيين والإنكليز على الشرق الأوسط. وأبرمت كل من فرنسا وبريطانيا اتفاقية سرية عام ١٩١٦ عرفت باسم «سايكس ـ بيكو» أفضت إلى تقاسم القوتين الاستعماريتين للمنطقة. وتركز هدفهما على احتلال مناطق جغرافية إستراتيجية ومرافئ هامّة للتجارة العالمية بعد أن ثبت أنها تحتوي على ثروة نفطية لا تنضب. وقد احتل الإنكليز خلال فترة الحرب العالمية الأولى فلسطين عام ١٩١٧. يعود اسم فلسطين إلى حقبة الإمبراطورية الرومانية، ولم يكن لها حدود جغرافية ثابتة في الزمن القديم، كما لم يستخدم هذا الاسم من قبل العثمانيين. وبعد انتهاء الحرب الأولى رسمت القوى الاستعمارية المنتصرة حدوداً مجحفة أسفرت عن قيام الدول المعروفة

في الوقت الراهن، وقام البريطانيون بضم مناطق حول ثلاث مدن «الموصل وبغداد والبصرة» واصطلحوا على تسميتها بالعراق.

وفقاً للممارسات الاستعمارية المعهودة، أوفدت الحكومة البريطانية عام ١٩٢٠ هيربرت صموئيل ممثلاً لها ليحكم فلسطين، كان صموئيل الذي شغل مناصب حكومية متعددة يهودياً ومناصراً للمشروع الصهيوني، واقترح عام ١٩١٤ إقامة وطن لليهود في فلسطين. وفي عام ١٩٢٢ منحت عصبة الأمم (قبل أن تصبح الأمم المتحدة) للبريطانيين انتداباً شرعياً في فلسطين، شمل الانتداب جزءاً كبيراً مما يعرف حالياً باسم الأردن. لهذا السبب كانت تلك الأرض تعرف ما بين ١٩١٦ ـ ١٩٤٨ باسم «الانتداب البريطاني في فلسطين». يعني ذلك أن أرض فلسطين ـ الاسم الحقيقي ـ المتنازع عليها من قبل الإسرائيليين والفلسطينيين قد تمخضت عن التقسيم الذي نفّذه الفرنسيون والإنكليز في المنطقة عام ١٩١٦.

١٠ ـ ما أهمية وعد بلفور عام ١٩١٧؟

في الوقت الذي كان البريطانيون يراقبون تفكك الإمبراطورية العثمانية خلال الحرب العالمية الأولى، كانوا يحيكون دسائس التحالفات للسيطرة على المنطقة بما فيها فلسطين. فقد كان هنري مكماهون الممثل البريطاني في القاهرة عام ١٩١٥ على اتصال دائم مع القادة العرب، كما وعدهم سابقاً بالدعم كي تنال معظم دول الشرق الأوسط استقلالها في المستقبل مقابل تعاونهم في القتال ضد الأتراك.

فبينما كان البريطانيون أصحاب التجارب والمهارات الاستعمارية يتفاوضون على استقلال الدول العربية، كانوا يطلقون وعوداً لليهود

حول دعمهم في إنشاء وطن قومي يهودي في فلسطين، وذلك قبل أن يسيطروا على المنطقة «رغم تناقض الوعدين من الناحية المنطقية».

في الثاني من تشرين الثاني/ نوفمبر عام ١٩١٧ كتب وزير الخارجية البريطاني Arthur James Balfour رسالة إلى البارون Lionel Rothschild المصرفي اليهودي المعروف الذي كان نائباً في مجلس العموم البريطاني كي يسلمها إلى الحركة الصهيونية التي كانت على علاقة قوية به. جاء في الرسالة «إن حكومة صاحب الجلالة ترى من الملائم إقامة وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وستبذل قصارى جهدها في توفير التسهيلات لتحقيق الهدف المذكور»، وأضافت «إنها لن تقوم بأي إجراء قد يلحق الضرر بحقوق المجتمعات غير اليهودية في فلسطين».

الرسالة لم تتطرق إلى إقامة دولة، كما لم تتضمن أي ميثاق قانوني، إضافة إلى أن البريطانيين لم يكونوا قد سيطروا على فلسطين. ولكنه كان للرسالة أهمية بالغة بالنسبة إلى الحركة الصهيونية لأنها مثلت أول اعتراف بمشروعها من أكبر قوة دولية آنذاك. ومنذ ذلك الحين رأت الحركة الصهيونية في «وعد بلفور» بريقاً قانونياً يمنحهم الشرعية في فلسطين. لقد شكلت الأصول الأوروبية للحركة الصهيونية والمصاهرة بين زعماء الحركة والأوروبيين ضمانة للبريطانيين بأن التحالف مع الصهيونية قد يخدم مشاريعهم في الشرق الأوسط، هذا وقد شعر القادة العرب بخيانة الإنكليز لهم إذا ما أخذ في الحسبان أنهم تمردوا على الأتراك وخاضوا الحرب ضدهم في الوقت ذاته الذي كان البريطانيون يعرضون على اليهود ـ الذين لم يتجاوزوا ١٠ ٪ من نسبة السكان في فلسطين ـ إمكانية إنشاء دولة لليهود، وهذا ما يتناقض مع وعودهم للعرب.

١١ ـ متى برز الحس الوطني الفلسطيني؟

وصلت الأفكار الوطنية إلى الشرق الأوسط في أواسط القرن التاسع عشر نتيجة للتطور الرأسمالي الأوروبي، والتأثير الفكري للأيديولوجيات التي تولدت عن الثورة الفرنسية. يشير بعض المؤلفين إلى حدوث تمرد وطني فلسطيني عام ١٨٣٤ ضد الأتراك قبل فترة طويلة من ظهور الحركة الصهيونية. وقد جاءت القومية العربية آنذاك ردة فعل ضد الإمبراطورية العثمانية والاحتلال الاستعماري الأوروبي اللاحق الذي دمر البنية التقليدية للمجتمع العربي بإدخاله الرأسمالية. هذا ما حدث في جزء كبير من الشرق الأوسط وفلسطين أيضاً.

لقد ظهرت الصحف الفلسطينية للعيان في أوائل القرن العشرين، وصدرت صحيفة «القدس» عام ١٩٠٨ و«الكرمل» عام ١٩٠٩، وفي عام ١٩١١ صدرت جريدة أخرى بالاسم المستوحى «فلسطين» ـ حين لم يكن لفلسطين هوية خاصة بها ـ. لعبت الصحف الثلاث دوراً بارزاً في إحياء الأفكار الوطنية المعارضة للهجرة اليهودية خشية أن يتحول السكان الفلسطينيون إلى أقلية، أو أن تصبح فلسطين غير عربية. وفي تلك الفترة كان الكثير من الزعماء الفلسطينيين قد أحيطوا علماً أن بعض الفلاحين العرب ـ الذين بيعت أراضيهم من قبل الإقطاعيين إلى الحركة الصهيونية ـ كانوا يناضلون من أجل العودة إليها، لكنهم اصطدموا بالمهاجرين اليهود الجدد القادمين من روسيا بعد أن استقروا فيها.

يمكن الاعتقاد أنه لو كان هناك حركة وطنية فلسطينية قوية مناهضة للاستعمار مماثلة للحركات الأخرى التي كافحت باستخدام وسائل العنف ضد المستعمرين لما ظهرت الحركة الصهيونية. كان يمكن تفادي ذلك لو أنهم تمردوا واستخدموا السلاح ضد الحكم

العثماني وبعده الاحتلال البريطاني، كما فعل الجزائريون الذين قاتلوا ضد الاستعمار الفرنسي، أو العراقيون في مقاومتهم للاحتلال البريطاني. لكن خصوصية واختلاف الشعور الوطني الفلسطيني تجلت في مواجهة اثنين من الأعداء المتصاهرين.

حين أدرك العرب الفلسطينيون خطورة المشروع الصهيوني، تمردوا ورفعوا السلاح ضد البريطانيين والحركة الصهيونية وحاولوا عرقلة الهجرة اليهودية.

١٢ ـ هل وافق العرب واليهود على احتلال البريطانيين لفلسطين؟

في عام ١٩٢٢ منحت عصبة الأمم بريطانيا «انتداباً» كي تتولى مسؤولية الحياة الاقتصادية والسياسية في فلسطين، ووفقاً للمعايير الاستعمارية التقليدية، قام الانتداب البريطاني بتطوير البنية التحتية في الأراضي الفلسطينية بما يخدم المصالح البريطانية، كما قام الإنكليز بتوسيع المرافئ على ساحل البحر المتوسط، وبنوا مصافي لتكرير النفط المستورد من العراق بغية نقله إلى بريطانيا. كانت علاقاتهم مع المجتمعين اليهودي والعربي تتأرجح من خلال تطبيق إجراءات لصالح هذا أو ذاك بصورة متناوبة وبما يخدم المصالح البريطانية.

وعلى الرغم من صعوبة تحديد عدد اليهود والعرب بدقة في فلسطين أثناء بدء الانتداب، فإن معظم الباحثين يتفقون في الرأي على أن نسبة اليهود بالكاد كانت تصل إلى ١٠ ٪ من مجموع السكان. وبغية توفير الدعم للسكان اليهود، أذن البريطانيون بوصول آلاف اليهود إلى فلسطين، إلا أنه لم يكن بوسعهم أن يهملوا السكان العرب، ولا سيما أنهم كانوا يقومون بخطوات نحو تشكيل دول في مناطق

نفوذهم وبخاصة مصر والعراق والأردن والعربية السعودية، إذْ أقاموا أنظمة ملكية لتخدمَ مصالحهم. وحين كانت كفة الميزان تميل نحو الجانب العربي كانوا يضعون العراقيل في وجه الهجرة اليهودية إلى فلسطين.

وفي عام ١٩٣٦ الذي تزامن مع تقدم النازية في أوروبا كان اليهود يحتاجون إلى فتح مرافئ فلسطين للهجرة اليهودية، فقد حدث تمرد عربي ضد الانتداب البريطاني استمر ثلاث سنوات، وطالب زعماؤه بإلغاء «وعد بلفور» وإنهاء الانتداب وإيقاف الهجرة اليهودية والإعلان عن فلسطين دولة عربية. لم يكن السكان العرب الفلسطينيون يعرفون الكثير عمّا كان يدور في أوروبا، ولم يبدوا اهتماماً بذلك. كان شغلهم الشاغل يتركز على إنهاء الاحتلال الاستعماري، وكانوا يعدون الحركة الصهيونية ذيلاً للاحتلال.

تجلت ردّة فعل البريطانيين على تمرد ١٩٣٦ في فرض جملة من العراقيل في وجه الهجرة اليهودية، وأدت تلك الإجراءات إلى حدوث تمرد مسلح في صفوف السكان اليهود ضد البريطانيين. وفي محاذاة ذلك انضم الكثير من اليهود المستائين في فلسطين إلى القوات البريطانية لمحاربة النازية في أوروبا مما زاد من تعقيد وتناقض سيناريو الاحتلال الاستعماري.

١٣ ـ بماذا يختلف الاستعمار اليهودي لفلسطين عن الاستعمار التقليدي؟

الاستعمار التقليدي هو ذاك الذي نفذته القوى الاستعمارية الأوروبية: كان الأوروبيون ينزلون في أرض، يستملكونها ويسيطرون على ثرواتها الطبيعية لخدمة الدولة المستعمرة باستخدام اليد

العاملة المحلية. هذا ما قام به البريطانيون والفرنسيون والإسبان والبرتغاليون في الهند وأفريقيا وأمريكا اللاتينية.

أما الحركة الصهيونية فقد كانت مختلفة عن الاستعمار التقليدي، مع أنها استخدمت كلمة «استعمار» للإشارة إلى مشروع توطين اليهود في فلسطين. لم يكن هدف الحركة الصهيونية استغلال اليد العاملة المحلية أو استخراج الثروات الطبيعية في فلسطين لإثراء دولة استعمارية معينة، لأنه لم يكن هناك دولة استعمارية يهودية. لقد تجلى هدفها عبر الهجرة الجماعية في تأسيس مجتمع لليهود فقط مع علمها أن اليهود كانوا أقلية. لذا فإن ممارساتها تتشابه في بعض النقاط مع الاستعمار البريطاني في أمريكا الشمالية والهولندي في جنوب أفريقيا. لم يأت المهاجرون البريطانيون والبويريون (سكان جنوب أفريقيا من أصل هولندي) إلى تلك الأراضي النائية لاستغلال اليد العاملة المحلية للسكان الأصليين، وإنما للاستيلاء عليها وطرد سكانها. أما اليهود الذين وصلوا إلى فلسطين بأعداد ضئيلة في أواخر القرن التاسع عشر وبالآلاف في العشرينيات والثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين فقد أسسوا مدناً (تل أبيب ١٩٠٩) ومزارع جماعية معروفة باسم «كيبوتز» لليهود فقط. وفي نفس الوقت كان هناك توصيات للتعاقد فقط مع يد عاملة يهودية واستثناء اليد العاملة العربية، وأسسوا أيضاً العديد من المؤسسات الاجتماعية والسياسية والثقافية، وكانت تستثني أيضاً انضمام العرب إليها، ومن أشهرها كانت نقابة عمال Histadrut. لقد مثل الكيبوتز نوعاً من المثالية لتحفيز الكثير من اليهود للتخلي عن حرفهم ووظائفهم في أوطانهم الأصلية والسفر إلى فلسطين ذلك البلد البعيد الحافل بالتعقيدات، وذلك لوضع حجر الأساس لما سمّي فيما بعد بالدولة اليهودية.

١٤ ـ متى بدأت المواجهات بين العرب واليهود؟

ما إن بدأ العرب يشعرون أن اليهود الذين كانوا يتوافدون إلى فلسطين يخططون بصورة واضحة وعلنية لفكرة إقامة دولة يهودية، حتى عارضوا الفكرة وبدأت المواجهات. فبينما كان اليهود والعرب (مسلمون ومسيحيون) يعيشون تحت سيطرة الإمبراطورية العثمانية تعايشوا كمجتمعات دينية بدون حدوث مشاكل خطيرة، باستثناء بعض الحوادث المنفردة، ولم تشهد موجة الهجرة الأولى ما بين ١٨٨٠ ـ ١٩٠٢ التي شملت ثلاثين ألف شخص صدامات خطيرة مع السكان الأصليين، بحيث لم تكن هناك دوافع لمعارضة وجودها لأنهم كانوا يقارنونها بالتجمعات اليهودية المتواجدة في فلسطين. لا شك أنهم كانوا يستغربون توافدهم من أماكن بعيدة للعمل في أنشطة اقتصادية كالزراعة، لا سيما أن أولئك المهاجرين لم يكونوا مهيئين لظروف مناخية متناقضة مع المناخ في البلدان الأصلية، وكانوا يلاحظون أن الكثير من الرواد الأوائل الذين قدموا من روسيا وبولونيا قد غادروها بسبب صعوبات التأقلم مع مناخ حار ورطب مختلف عن المناخ في أوروبا.

بدأت المشاكل تحتدم حين أعلن اليهود بصورة فاضحة أنهم يسعون إلى إنشاء دولة خاصة بهم فقط، وأن مختلف المنظمات اليهودية كانت تشتري الأراضي من الإقطاعيين العرب ـ الكثير من هؤلاء الإقطاعيين لم يكونوا في فلسطين ـ وتطرد الفلاحين منها باستثناء بعض الحالات المنفردة، ولم يشكل شراء الأراضي وطرد الفلاحين بالنسبة إلى أغلبية زعماء الحركة الصهيونية أي حرج أخلاقي.

إن تطور المؤسسات اليهودية لم يبعد الشبهات حول أهدافهم إزاء تحويل اليهود من أقلية إلى أغلبية. لقد كشف عن ذلك بصورة جلية مدير الوكالة اليهودية Josef Weitz عام ١٩٤٠ قائلاً: يجب أن

نعلن بوضوح أنه ليس هناك مكان في هذا البلد لشعبين (. . .). إذا ما استمرّ العرب بيننا لن يكون بمقدورنا تحقيق هدفنا بالتوصل إلى شعب مستقل في هذه الأرض الصغيرة، فالحل الأوحد يكمن في أن تكون أرضاً لإسرائيل بدون العرب (. . .)، وليس هناك خيار آخر إلا بنقل العرب إلى البلدان المجاورة. لابد من نقلهم كلهم بدون أن تبقى قرية واحدة أو قبيلة، ويتعين نقلهم باتجاه العراق وسورية وشرق الأردن.

وبمرور السنوات وقدوم موجات هائلة من اليهود، بدأ العرب يعون أن هذا القدوم الجماعي قد يرغمهم على مغادرة أراضيهم، فزادوا من معارضتهم للصهيونية.

١٥ ـ ماذا فعل اليهود ليتحولوا من أقلية إلى أغلبية في أرض فلسطين؟

إن العامل الأول الذي يجب أخذه في الحسبان هو دعم البريطانيين الذين كانوا يبسطون سيطرتهم على فلسطين، وعلى الرغم من تذبذباتهم، كانوا دوماً يعدون اليهود حلفاء لهم، وأن أعداءهم هم العرب في المنطقة، والنازيون في أوروبا.

كانت هجرة آلاف اليهود هرباً من النازية عاملاً أساسياً في إعطاء قوة دفع جديدة لمشروع عدّه اليهود في فلسطين والعالم ثانوياً حتى بدايات القرن العشرين. بدأ يتجسد المشروع مع انتقال ملكية الأراضي إلى أيدي اليهود، لقد توسعوا في المدن، وأنشؤوا بنية تحتية موازية للبنى الاستعمارية البريطانية.

عدّ المشروع الدول الرأسمالية نموذجاً لتشكيل حكومة وأحزاب

سياسية ووزارات للتربية والصحة والعمل، إضافة إلى بنية عسكرية صلبة، فضلاً عن أشياء أخرى، أي ما يسمى في الاصطلاح الصهيوني «الدولة القادمة». لقد أسسوا أثناء حكم البريطانيين بنية تحتوي على وظائف ومكونات الدولة. أما المجتمع العربي فكان شبه إقطاعي ذا نظم بدائية قائمة على البطون العائلية المتنافسة فيما بينها، وشكل الافتقار إلى المجتمع الديناميكي المنظم عقبة أمام الفلسطينيين حال دون قدرتهم على منع تكون المجتمع اليهودي الذي كان يحظى بدعم مالي كبير من مختلف المنظمات اليهودية في العالم. وبقدر ما كانوا يشترون الأراضي أو يستولون عليها كانوا يحلون مكان السكان العرب. بدأ البريطانيون يفكرون بتقسيم فلسطين عام ١٩٣٦ إثر حدوث التمرد العربي، وذلك لإحساسهم أن النزاع سيزداد بين الطرفين، ولن يكون بمقدورهم السيطرة عليه. في تموز/يوليو ١٩٣٧ قامت لجنة خاصة برئاسة المسؤول البريطاني Earl Peel بإعداد تحليل للوضع الداخلي في فلسطين، فتوصلت إلى نتيجة مفادها أنه لا يمكن التعايش بين اليهود والعرب، وأن مشروع قيام «وطن قومي لليهود» لا يمكن أن يعيش فيه كلا الشعبين. سرعان ما استوعبت الحركة الصهيونية الوضع وأدركت أنه من المهم التفكير في تأسيس تجمعات سكنية يهودية ضرورية لتنفيذ مشروع التقسيم في المستقبل. وخلال فترة قصيرة استولوا في عملية عرفت باسم «جدار وبرج» على أراض في طول وعرض فلسطين لوضع الأسس لاثنتين وخمسين مستوطنة. كل شيء كان يسير نحو تحقيق هدفهم بالتحول إلى أغلبية.

١٦ ـ لماذا قرّرت الأمم المتحدة تقسيم فلسطين عام ١٩٤٧؟

احتدت شدة المصادمات بين الفلسطينيين والإسرائيليين خلال عقد الثلاثينيات، مما أدى إلى فقدان السيطرة البريطانية على الأراضي

الفلسطينية. وقد أخذت فكرة استحالة التعايش بين اليهود والعرب تزداد قوة منذ أن طرحت لجنة «Peel» أن التقسيم هو الحل الأنسب لفلسطين. كما أسهمت الحرب العالمية الثانية بزيادة الهجرة الجماعية لليهود إلى فلسطين بدعم من حكومة الولايات المتحدة الأمريكية (إحدى القوى العظمى الصاعدة) والاتحاد السوفياتي، ونتيجة لتطور الأحداث بات التمديد للانتداب البريطاني غير ممكن، وهذا ما دعا بريطانيا إلى اتخاذ قرار بالانسحاب من فلسطين. في شهر أيار/مايو ١٩٤٧ شكلت الأمم المتحدة (الحديثة العهد) لجنة خاصة لإيجاد حل بعد إتمام الانسحاب الكامل للقوات البريطانية، وأوصت باتفاقية تلبّي الطموحات القومية للشعبين اليهودي والفلسطيني، أي بتقسم فلسطين.

السؤال الذي كان يطرح نفسه هو كيفية تقسيمها. اتخذ قرار بتشكيل الدولة اليهودية في الأماكن التي تقطنها أغلبية من اليهود، وإنشاء دولة عربية في تلك الأماكن التي تسكنها أغلبية عربية، لكن الغالبية العظمى من السكان كانت من العرب في خمس عشرة مدينة من أصل الست عشرة الكبرى. كان انعدام التوازن بدهياً للغاية، وكان بالإمكان تقسيم الأرض وإقامة دولة عربية بأغلبية عربية، لكن أي تقسيم كان سيترك داخل الدولة اليهودية نسبة عالية من العرب، وكان هناك توجه لتفادي ذلك. يمكن القول: إن الرغبة كانت تتجلى في وجود دولتين متجانستين عرقياً، إلا أن ذلك كان مستحيلاً بسبب وجود أغلبية عربية ساحقة.

في التاسع والعشرين من تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٩٤٧ صوّتت الجمعية العامة للأمم المتحدة على القرار/١٨١/الذي أقرّ تقسيم فلسطين إلى دولتين. كان قرار التقسيم منحازاً بوضوح إلى

اليهود مع أنهم كانوا أقلية، إذ منحهم أكثر من ٥٦ ٪ من الأرض، وخصص للعرب بالكاد ٤٣ ٪. ونظراً إلى الأهمية الخاصة لمدينة القدس لاحتوائها على أماكن مقدسة للمسيحيين واليهود والعرب، فقد اتخذ قرار بتحويلها إلى كيان ذي استقلال ذاتي تتولى إدارته الأمم المتحدة.

١٧ ـ كيف كان موقف اليهود من التقسيم؟

كانت الأرض التي خصصت للدولة اليهودية عام ١٩٤٧ أقل مما طالبت به الحركة الصهيونية منذ بداياتها، وقد تفهم زعيمها الرئيس دافيد بن غوريون أنه كان من الضروري القبول بالتقسيم. بعد خمسين عاماً فقط أصبحت حقيقة واقعة تلك العبارة الشهيرة التي قالها مؤسس الحركة الصهيونية تيودور هيرتزل «إذا كنت تريد شيئاً فلن يكون أسطورة». لم يكن تعداد اليهود في فلسطين يتجاوز ٨٠ ألف نسمة في أوائل القرن العشرين، وكانوا قلة أولئك الذين اعتقدوا بإمكانية إقامة دولة يهودية. لقد تغيرت الظروف التاريخية، ففي عام ١٩٤٧ أصبح عدد اليهود في فلسطين يقارب٦٥٠ ألف نسمة، لذا قررت الأمم المتحدة أن تمنحهم دولة بشرعية واعتراف دولي بغية استيعاب جميع اليهود الذين كانوا لا يزالون يعانون عواقب الهولوكوست.

ولكونه برغماتياً، وافق بن غوريون على القرار غير مكترث بانتقادات الأحزاب اليمينية المتطرفة التي لم تكن على استعداد للتنازل عن «الأرض التاريخية لإسرائيل» التي تشمل استناداً إلى تلك الأحزب جزءاً كبيراً من الأراضي الحالية للمملكة الأردنية الهاشمية لتمتد حتى دجلة والفرات في العراق. هذا وقد أشار بن غوريون عام ١٩٣٧ إلى أن «قبول التقسيم لا يلزمهم بالتخلي عن شرقي الأردن» موضحاً أن

المهم في القرار هو الحصول على جزء قليل من الأرض، وبعد ذلك يمكن البت في الأمر. لقد وافقت الحركة الصهيونية لقناعة زعمائها أن الاستمرار في التوسع سيواجه الكثير من التعقيدات، لا سيما أن ٤٠ ٪ من سكان الأراضي المخصصة لإسرائيل هم من الفلسطينيين، مما يجعل فكرة الدولة اليهودية النقية عرقياً أكثر تعقيداً. واستناداً إلى منطق الحركة الصهيونية كان التقسيم مقبولاً لأن حلمها قد تحول إلى حقيقة بدون الاكتراث بانعكاساته على السكان العرب، وخرج آلاف اليهود إلى الشوارع احتفالاً بقرار الأمم المتحدة. فاليهود الذين كانوا يمتلكون بالكاد ٦ ٪ من الأراضي ولم تتجاوز نسبتهم ٣٠ ٪ حصلوا على أكثر من ٥٠ ٪ من الأرض، فكيف لا يوافقون على التقسيم؟

١٨ ـ كيف كان موقف العرب من التقسيم؟

لا شك أن السكان العرب قد عارضوا بصورة قاطعة قرار التقسيم، وكانت معارضتهم منطقية لأنهم كانوا يرون أن اليهود يستلبون أرضهم، وأنه ليس للأمم المتحدة أية صلاحية لاتخاذ قرار التقسيم لأنها لم تستشرهم. ولكونهم أغلبية عادوا ليطرحوا الفكرة التي اقترحوها عند بدء الاحتلال البريطاني «انسحاب القوات المحتلة وإقامة دولة عربية».

ومن جهة أخرى، ونتيجة للكشف عن تصريحات العديد من زعماء الحركة الصهيونية خلال عقد الثلاثينيات ونيتهم في طرد السكان العرب، شعر هؤلاء أن التقسيم كان خطوة نحو تحقيق هذا الهدف، إذ لم تكن أحوالهم على ما يرام لا سيما أنهم ما زالوا يعانون فشل التمرد بين ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ عدا عن وضع القيادات الفلسطينية التي كانت متشرذمة ومنهكة.

ربط السكان العرب في فلسطين موقفهم بما يمكن أن تقوم به جامعة الدول العربية التي تأسست عام ١٩٤٥، وكانت الجامعة قد أقرّت أن يشارك في اجتماعاتها ممثل عربي عن فلسطين إلى أن يحصل ذلك البلد على استقلال شامل. كما صوتت الدول العربية في الأمم المتحدة ضد قرار التقسيم، إذ لم يكن بوسعهم أن يوافقوا على دولة يهودية في قلب الوطن العربي، وقرروا أن يمنعوا قيامها بالقوة، وكانت أغلبية البلدان العربية قد أسست جيوشاً، وكان لبعضها كمصر وسورية والأردن حدود برية مع فلسطين.

وعلى الرغم من التأكيدات الإسرائيلية طوال سنوات عدة من أن الحرب كانت غير متكافئة نظراً إلى التفوق الكبير في تعداد العرب، وأن المواجهة كانت بين أقلية إسرائيلية وأغلبية عربية، لكن الجيوش العربية في الحقيقة لم تكن أكثر تعداداً، إضافة إلى رداءة إعدادها وتخلّف عتادها.

كان زعماء الحركة الصهيونية بقيادة بن غوريون يدركون هذه الحقيقة، وتركوا شهادات تثبت ذلك، إلا أنهم أرادوا أن يعيدوا إلى الأذهان الأسطورة التي تقول بأن دافيد الصغير يقاتل الغول العملاق. كان الخطاب العربي الرسمي بعيداً عن الواقع، ولم يستطيعوا الحيلولة دون قيام دولة إسرائيل.

١٩ ـ كيف كان تأثير الإبادة الجماعية لليهود في أوروبا في إنشاء دولة إسرائيل؟

قلة ضئيلة من اليهود الذين كانوا يتخذون قراراً في أوائل القرن العشرين بمغادرة بلدانهم الأصلية جرّاء الملاحقات والمذابح التي تعرضوا لها في أوروبا الشرقية والغربية، كانت تختار الهجرة إلى

فلسطين. كانت الحركة الصهيونية ما تزال حديثة العهد ولم يكن لها أنصار كثر، إما لأن معظم اليهود كانوا يشعرون بجاذبية نحو الأفكار الاشتراكية أو لأنهم كانوا يفضلون العالم الجديد الذي كان يعرف باسم «أمريكا». فخلال الحرب العالمية الثانية كانت المنظمات اليهودية في أوروبا تكثف جهودها في إقناع اليهود بالهجرة إلى فلسطين. إلا أن إبادة ستة ملايين يهودي قد تركت آثارها العميقة في العالم الغربي، وأن بصماتها غير قابلة للطمس. فبينما كان النازيون ينفذون عمليات الإبادة الجماعية، كانت تقوم بعض الدول بتحديد عدد اليهود المسموح لهم بالهجرة إليها لدرجة أن بعضها رفض أن يستقبل في مرافئها سفناً محملة بنفوس يائسة تبحث عن ملاذ لها تحت الشمس. لقد جاء في كتاب Viviane Forrester بعنوان «الجريمة الغربية» أن الدول الأوروبية تركت اليهود «في المصيدة الهتلرية»، وبعد الحرب عزل الآلاف منهم في مخيمات مخصصة «لأشخاص نازحين». كما تم الترويج لنوع من عقدة الذنب بين الأوروبيين لأنهم لم يقوموا بما يكفي لتفادي المجزرة ضد اليهود. وهكذا كان التعاطف والدعم للدولة التي ولدت عام ١٩٤٨ ضرباً من التعويض عن معاناة الشعب اليهودي، وما زال هذا الشعور قائماً وملموساً من خلال التسامح الكبير الذي تبديه أغلبية الحكومات ووسائل الإعلام في أوروبا أثناء توجيه الانتقادات إلى إسرائيل بسبب مواقفها وممارساتها تجاه الفلسطينيين. ومازالت مراكز الإبادة في Auschwitz بألمانيا تبدو وكأنها تمنح إسرائيل نسيماً من الرفق بالضحية الأزلية في مواجهة الفلسطينيين. ولهذا السبب فإن كلمة المحرقة حاضرة باستمرار في خطابات الكثير من السياسيين الإسرائيليين الذين ينعتون العرب كأنهم استمرار للنازية، وأنهم لا يرفضون الصهيونية بسبب ممارساتها وإنما نتيجة لحقدهم على اليهود.

٢٠ ـ متى أقيمت دولة إسرائيل؟

أقيمت دولة إسرائيل في ٣٠ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٧ بعد يوم واحد من قرار الأمم المتحدة الذي أقر تقسيم فلسطين، وبدأت إثر ذلك المواجهات العنيفة بين الشعبين. وحتى شهر آذار/مارس ١٩٤٨ كان ما يقارب مئة ألف فلسطيني قد هربوا من ديارهم بسبب التفوق الواضح للقوات العسكرية اليهودية التي نظمت مسبقاً لتكون جيشاً حقيقياً، وقد قررت الانتقال إلى الهجوم لتعزيز الدفاع عن المستوطنات والقرى والمدن اليهودية، ولاستلاب أراض خارج المناطق المحددة لدولة إسرائيل في قرار التقسيم، بما فيها مدينة القدس.

رمت خطة التقسيم إلى تجنب العنف بين الطرفين، وتم الاتفاق على انسحاب القوات البريطانية من فلسطين، وأن تقوم لجنة من الأمم المتحدة بترسيم حدود الدولتين، وكان من المقرر قيام دولتين مؤقتتين في أول نيسان/أبريل ١٩٤٨. لكن تصاعد حدّة المواجهات وأجواء الارتياب جعل اليهود يسارعون إلى اتخاذ قرار للإعلان عن قيام الدولة، بالرغم من علمهم المسبق بأن البلدان العربية كانت سترفض الاعتراف بها لأنها أعلنت مسبقاً عن هذا الرفض. في العاشر من أيار/مايو عام ١٩٤٨ سافرت الزعيمة اليهودية غولدا مائير إلى الأردن لإجراء مباحثات مع الملك عبد الله والتفاوض معه كي يوافق على جعل الشطر العربي من فلسطين تابعاً للمملكة.

وفي الرابع عشر من أيار/مايو، أي قبل يوم من انتهاء الانتداب البريطاني أعلن اليهود رسمياً عن إقامة دولة إسرائيل. وحول قضية حدود الدولة الجديدة، صرح بن غوريون أنه في حال

تحقق النصر على العرب واستولى اليهود على أراض جديدة فستكون جزءاً من الدولة اليهودية. وفي الخامس عشر من أيار/مايو شنت البلدان العربية حرباً ضد إسرائيل استمرت حتى الإعلان عن الهدنة في تموز/يوليو ١٩٤٩. وقد احتلت القوات الإسرائيلية جزءاً كبيراً من الأراضي المخصصة للدولة الفلسطينية، وأصبح ٧٨ ٪ من أراضي فلسطين تحت السيطرة اليهودية، على الرغم من أن قرار التقسيم قد منحهم ٥٦ ٪، واعترفت الأمم المتحدة بالحدود الجديدة التي رسمت بخط حدودي عرف بـ «الخط الأخضر» نسبة إلى اللون الذي استخدم في الخرائط. وبقي ٢٢ ٪ من الأراضي المتبقية ـ أقل من النصف الذي خصص للدولة الفلسطينية التي كان من المقرر ولادتها ـ تحت سيطرة مصر والأردن، وقسمت مدينة القدس التي كان من المقرر أن تصبح مدينة دولية إلى شطرين، الشطر الغربي داخل دولة إسرائيل وألحق الشطر الشرقي رسمياً بالأردن.

٢١ ـ لماذا تعرف دولة إسرائيل بالدولة اليهودية؟

عندما أعلن اليهود استقلال دولة إسرائيل في ١٤ أيار/مايو ١٩٤٨، قررت وثيقة أوجزت ارتباط الشعب اليهودي بالأرض التي ولدت فيها الدولة الجديدة، وأشارت إلى أن «أرض إسرائيل» كانت مهداً للشعب اليهودي، حيث صاغ هويته الروحية والدينية والوطنية، وبعد أن أُبعد عن أرضه بالقوة حافظ الشعب اليهودي على إخلاصه لها طوال فترة الشتات.

تؤكد مناهج التربية في المدارس الإسرائيلية أن طرد اليهود قد حصل خلال فترة الحكم الروماني عام ٧٠ قبل الميلاد، وأن الرغبة في العودة إلى الاستقرار في أرض الأسلاف هي حق طبيعي وتاريخي

فقط لليهود، وأن الشعب اليهودي المخلص لفكرة العودة تمكن من تحقيق أهدافه بعد ألفي عام.

وكما تفعل أغلبية الحركات القومية، قام مؤسسو الحركة الصهيونية، ومن ثم الدولة الإسرائيلية باختلاق رواية تاريخية أسطورية (ميثيولوجية) جمعت بين الروايات الإنجيلية ذات الصبغة الدينية الميثيولوجية والفكر الوطني الحديث، وربطت بين الشتات والرواية الحديثة للملاحقات ضد اليهود بغية إقناع العالم بصحة رواياتها.

وبغية التشديد على المصير المشترك لدولة إسرائيل ويهود العالم، تضمن إعلان الاستقلال العبارة التالية «إن دولة إسرائيل ستظل منفتحة على الهجرة اليهودية»، ولهذا السبب يمكن لأي يهودي أن يستوطن ويعيش فيها، وأن يحصل على الجنسية الإسرائيلية.

إن تعريف إسرائيل بأنها دولة يهودية يعني أنها تخصّ أي شخص تعتبره السلطات الإسرائيلية «يهودياً» سواء أكان يعيش داخل إسرائيل أم خارجها. وفي الوقت نفسه لا تخص مَن هم ليسوا يهوداً، أي العرب الذين يشكلون ٢٠ ٪ من السكان.

ونتيجة لذلك فإن لتسمية الدولة باليهودية انعكاسات على الحياة اليومية، وتتضمن آليات متعددة تمنح بموجبها امتيازات لليهودي على العربي بخاصة فيما يتعلق بحقوق الإقامة والعمل والمساواة أمام القانون؛ فاليهودي يستطيع أن يعيش حيثما شاء، وأن يفتح محلاً تجارياً في أيّ مكان، فقط لكونه يهودياً، بينما تحظر هذه الحقوق على غير اليهود الذين لا يحق لهم العمل في المكاتب والهيئات الحكومية. إن تعريف «الدولة اليهودية» يستثني الأقلية العربية غير اليهودية من أية صلة بالتاريخ المذكور.

٢٢ ـ لماذا تخلّى الفلسطينيون عن أرضهم؟

هناك أغنية تقول: «إذا كتب المنتصرون التاريخ، يعني ذلك أن هناك تاريخاً آخر». إن الإسرائيليين هم الذين كتبوا التاريخ عقب قيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨، وقبلت روايتهم في أنحاء العالم كله باستثناء البلدان العربية.

واستناداً إلى الرواية الرسمية الإسرائيلية، فقد هرب الفلسطينيون تلبية لنداء وجهه الزعماء العرب في الدول العربية الأخرى كي يغادروا فلسطين. كتب المدير العام السابق في وزارة الخارجية الإسرائيلية Walter Eytan : «لو لم تشن الدول العربية حرب ١٩٤٨، ولو لم يوجه النداء للفلسطينيين كي يغادروا ديارهم، لما كان هناك مشكلة لاجئين». وأضاف بكلمات أخرى «باستثناء بعض الحالات المنفردة، لما أجريت محاولات لإبعاد أي منهم، فالمسؤولية لا تقع على عاتق اليهود، وأن مشكلة اللاجئين هي مشكلة عربية». وقامت وسائل الإعلام الأوروبية والأمريكية التي تنشر تقريباً معظم أخبار العالم بإعادة تأليف هذه الرواية، علماً أن مختلف الدراسات أثبتت زيفها. فالقادة العرب لم يطلبوا منهم أن يغادروا أرضهم، ولم يتخلوا عنها بمحض إرادتهم. هذه الرواية الإسرائيلية تتناقض مع تطور الأحداث، لا سيما أن الزعماء الصهاينة كانوا يرددون علناً أنه لا مكان لشعبين في هذه الأرض، وأن هدفهم يتركز على طرد أكبر عدد ممكن من العرب.

لذا قام الجيش الإسرائيلي أثناء الحرب بتدمير ٥٠٠ مدينة وقرية عربية للحيلولة دون عودة سكانها، ومع ذلك فإن ما يقارب مئة ألف منهم تمسكوا بأرضهم، وتمكنوا من البقاء. وبغضّ النظر عن أي تقييم أخلاقي حول ما جرى، فقد أقفل النقاش الهادف بهذا الشأن،

النتيجة أن الفلسطينيين طردوا من أرضهم وفقاً لما يقرّ به الكثير من المؤرخين الإسرائيليين.

٢٣ ـ ما معنى تعبير النكبة الذي يستخدمه الفلسطينيون؟

عدّ العرب إقامة دولة إسرائيل أهم بكثير من قضية التخلّي عن الأرض، فقد أزيلت قرون من الحضور في بضعة أسابيع، وأن ما يقارب ٥٠٠ مدينة وبلدة دمرت كلياً، وهدمت مساجد وأزيلت مقابر وتم تشريد آلاف اللاجئين، كما انقطعت رابطة الحياة نفسها بين شعب وأرضه. لقد أزيلت تلك المدن والقرى من الخارطة واستبدلت ببلدات يهودية بعد تهويد أسمائها. وقد تغيرت أسماء المدن الهامة كالرملة واللدّ. وكما يقول موشي ديان أحد القادة المعروفين في إسرائيل. «لا يوجد مكان واحد حيث نستقر إلا وكان فيه قرية عربية».

بعد أن تم تدمير مدينة سعسع القريبة من الحدود اللبنانية، قامت مجموعة من اليهود الأمريكيين باحتلالها وأنشؤوا فيها مزرعة كيبوتز، وعمدوها باسم «ساسا». لقد تركوا شهادات تبين ما جرى خلال الأيام الأولى من الحرب بما فيها شهادات تأنيب الضمير بسبب نسف مسجد البلدة بمتفجرات مع أنهم كانوا على قناعة بضرورة نسفه. ومع مرور أكثر من ستين عاماً، وعندما يجوب الإنسان المكان يكتشف أن منازل عدة ما زالت تحتفظ بالمواصفات المعمارية لبلدة سعسع القديمة.

لقد دمّر المجتمع الفلسطيني بأسره، كانت كارثة حقيقية تعرف باللغة العربية باسم «النكبة»، واستمر ذكرها ينتقل من جيل إلى آخر. لم يكن يوجد فلسطيني واحد على استعداد للتخلي عن أرضه بخاصة

أسلوب الطرد الجماعي. كانت أغلبية الفلسطينيين تأمل بالعودة، لكنهم لم يتمكنوا. ما زال الكثير منهم يحتفظون بمفاتيح منازلهم كـ «سند» تمليك للعقار الذي طردوا منه. لقد استغرق تجميع شهود من الفلسطينيين عدة عقود لإعادة كتابة الرواية في محاولة لدحض الرواية الإسرائيلية التي تقول: إنهم قد هربوا. باستثناء الوطن العربي حيث تعرف الرواية الحقيقية، قلة هم أولئك الذين كانوا يقتنعون بالرواية الفلسطينية حول ما جرى عام ١٩٤٨.

يحتفل الإسرائيليون بعيد الاستقلال في ١٤ أيار/مايو من كل عام، وفي١٥ أيار/مايو يقوم الفلسطينيون بإحياء ذكرى النكبة. روايتان متضادتان لنفس القضية.

٢٤ ـ ماذا ترتب على ظهور ما يسمى بالمؤرخين الإسرائيليين الجدد؟

حتى أواسط الثمانينيات من العقد الماضي، وبسبب تمركز القوة في أوروبا كان ينظر في الغرب بازدراء إلى كل من يشكك بالرواية الرسمية الإسرائيلية، كما كان هناك تجاهل لكتابات المفكرين العرب لمجرد أنهم عرب. قلة قليلة كانوا أولئك الذين يعلمون أو يعتبرون كتاب «معنى النكبة» للكاتب السوري قسطنطين زريق الذي نشر عام ١٩٤٨، أو كتاب «لماذا رحل الفلسطينيون» للكاتب الفلسطيني وليد الخالدي عام ١٩٥٩.

غير أن ظهور عدد من المؤرخين وكتّاب علم الاجتماع الإسرائيليين خلال عقد الثمانينيات ـ من أمثال Benny Morris, Ilan Pappé, Tom Segev, Avi Shlain وغيرهم ممن شككوا في بعض الأساطير التي وظفتها الدولة «بوصفها حقائق» لخلق نوع من الوحدة في الرأي

العام في صفوف الشعب الإسرائيلي، وذلك بشأن العديد من القضايا وبخاصة المتعلقة بالهروب الطوعي للفلسطينيين - قد عرى هذه «الحقائق» من مصداقيتها.

في عام ١٩٩٤ صرح المؤرخ Benny Morris لصحيفة إسرائيلية بما يلي: «لقد كذبوا علينا، أخفوا الحقيقة، وضعوا المعلومات تحت السجادة (...). كانوا على علم بعمليات الإبعاد الجماعي، والمذابح والانتهاكات، لكنهم حذفوا ما كانوا يعرفونه، ونشروا الأكاذيب بهذا الشأن». تفحص هؤلاء الأكاديميون بإسهاب الوثائق الرسمية والسرية واكتشفوا أن السلطات العليا قد أخفت عن الجمهور طيلة ٤٠ عاماً الفظائع بأشكالها المتعددة والمذابح والانتهاكات والتنكيل بأنواعه المختلفة التي ارتكبت ضد الفلسطينيين.

لقد اهتز المجتمع الإسرائيلي لأن هؤلاء الأكاديميين والأساتذة في أهم الجامعات الإسرائيلية قد منحوا مصداقية للرواية الفلسطينية بخصوص ما جرى عام ١٩٤٨. واستناداً إلى الوثائق الرسمية ناقش هؤلاء إذا كان الإبعاد قد شكل جزءاً من مخطط مدروس عن سابق إصرار، أو أنه تم بسبب ديناميكية الحرب.

أدّى ظهور المؤرخين الجدد إلى إحداث تصدع في التصورات الفكرية للمجتمعات الأوروبية والأمريكية، إذ لم يعد الفلسطينيون وحدهم الذين يقولون إنهم طردوا من ديارهم، وإنما بات الإسرائيليون أنفسهم يؤكدون هذه الرواية.

٢٥ ـ هل يمكن الحديث عن ارتكاب تطهير عرقي في فلسطين؟

إن مفهوم التطهير العرقي حديث العهد نسبياً، وقد بُدئ باستخدامه اعتباراً من الحرب التي أسفرت عن تقسيم يوغسلافيا في عقد

التسعينيات من القرن الماضي، لقد ارتكبت خلال تلك الحرب مجازر بين الصرب والكروات والبوسنيين بهدف تطهير أرض معينة من مجموعة عرقية أخرى كي تكون متجانسة كلياً من الناحية العرقية. يتضمن المفهوم نفسه الإزالة المنظمة أو الإبعاد القسري لمجموعة من السكان لأسباب دينية إثنية أو قومية. ويُعدّ الآن جريمة ضد الإنسانية. كان ILan Pappé أول من أدخل مفهوم «التطهير العرقي» لتحليل النزاع الفلسطيني ـ الإسرائيلي. لقد حلّل Papp الأحداث التي جرت في يوغسلافيا، وتساءل عن إمكانية مقارنتها بعمليات الإبعاد المنظم للفلسطينيين. ارتأى الكاتب المذكور أن عمليات التطهير العرقي التي قامت بها القوات اليهودية قد بدأت بعيد قرار تقسيم فلسطين في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٤٧، وبلغت ذروتها في المخطط الذي عرف باسم «خطة Dalet»، داليت هو الحرف الرابع من الأبجدية العبرية. وكان الباحث الفلسطيني وليد الخالدي قد نشر تحليلاً مسهباً للمخطط اليهودي المذكور بين نيسان/ أبريل وأيار/ مايو ١٩٤٨ أوضح فيه أن المخطط كان يهدف إلى القضاء على آثار السكان العرب، وطرد الغالبية القصوى منهم. هذا وقد تناول Pappé المفهوم مجدداً، وعدّ أن الحركة الصهيونية لم تنتهز فرصة انتهاء الانتداب البريطاني والمواجهات بين الطرفين لتنفيذ حلمها بإزالة المعالم العربية كلّها في المنطقة، وإقامة دولة تقتصر فقط على اليهود، لا بل كان هناك مخطط مرسوم لتحقيق ذلك الغرض. وبغضّ النظر عن التفاصيل العسكرية، يؤكد Pappé أن القوات التي كانت تنفذ المجازر لم تكن تحتاج أوامر مباشرة من السلطات السياسية لارتكاب المجازر وإبعاد المجموعة الإثنية الأخرى (الفلسطينيين) لأنها كانت تعي ما ينبغي أن تقوم به أثناء المعارك، ويؤكد أيضاً أن المجازر التي ارتكبت كانت ثمرة مباشرة للحقد والرغبة في الانتقام. وأن ممارسات القوات اليهودية تتوافق مع ما يسمى حالياً بـ «التطهير العرقي».

٢٦ ـ ماذا حدث في بلدة دير ياسين كي يتذكرها الفلسطينيون بصورة دائمة؟

دخلت القوات الإسرائيلية في ٩ نيسان/أبريل ١٩٤٨ قرية صغيرة تدعى دير ياسين إذ اغتالت أكثر من ١٠٠ شخص ما يعادل سدس سكانها من نساء وأطفال، وعملياً لم تحدث معارك بين الطرفين. لقد تم إعدام الكثير منهم رمياً بالرصاص ونهبت ممتلكات القرية، وانتشرت شائعات حول ارتكاب العديد من عمليات الاغتصاب. سعى الذين ارتكبوا المجزرة إلى بث الرعب بين الفلسطينيين كلّهم، وهكذا فقد حققوا مآربهم، وبالغوا فيما يتعلق بعدد القتلى، وتباهوا بما اقترفوه من جرائم، وسرعان ما شاع الخبر وتناقله السكان الفلسطينيون. إن القوات الإسرائيلية التي كانت تتقدم نحو بلدات عربية كانت تبالغ بما جرى في دير ياسين لئلا يكون هناك شبهات حول نياتها.

لم يكن الفلسطينيون يعلمون إلا القليل حول الخلافات داخل الحركة الصهيونية التي كانت منقسمة آنذاك سياسياً وعسكرياً إلى ثلاثة تيارات غير مكترثة فيما لو ارتكبت المجزرة من المجموعات الصغيرة. كان التيار الغالب يمثل الصهيونية العمالية، وكان الجناح المسلح فيها يدعى «Hagana»، إلى جانب مجموعتين صغيرتين من اليمين المتطرف الأولى تدعى Irgun (منظمة الجيش الوطني) والثانية El Leji (المحاربون في سبيل حرية إسرائيل) وكانت تعرف باسم Stern نسبة إلى مؤسسها Lair Stern، وعلى الرغم من توافق وجهات نظرها حول العديد من القضايا كانت هناك خلافات حادة، وحدثت مواجهات مسلحة بينها في أكثر من مناسبة. وقد ارتكبت مجزرةَ دير ياسين المجموعتان اللتان تمثلان الأقلية، لكن الفلسطينيين لم يميزوا بين هذه المجموعات وعدّوا المجزرة جزءاً من مخطط الإبعاد.

الفلسطينيين الذين بدأوا بالهروب من قراهم ومدنهم جراء وجود منظمات صهيونية مسلحة، وذلك خشية أن يتعرضوا لمذابح مماثلة. وأصبحت دير ياسين فيما بعد رمزاً للفلسطينيين، وما تزال بعض منازل القرية حاضرة، ويمكن مشاهدتها داخل ما يسمى اليوم بالمركز الإسرائيلي للصحة العقلية.

ربما تتيح مجزرة دير ياسين فهم البعد الحقيقي لعبارة إميل حبيبي «محرقتكم نكبتنا». إن رفاة البلدة متواجدة على بعد ألف متر من «Vashem Yad»، أشهر وأهم متحف للمحرقة اليهودية.

٢٧ ـ من هم اللاجئون الفلسطينيون؟

اللاجئون هم أولئك العرب الفلسطينيون الذين غادروا فلسطين بعد إقامة دولة إسرائيل عام ١٩٤٨ ولم يتمكنوا من العودة. في ١١ كانون الأول/ ديسمبر عام ١٩٤٨ أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة القرار رقم/ ١٩٤/ الذي نص على «السماح لجميع اللاجئين الذين يرغبون بالعودة إلى ديارهم والعيش بسلام مع جيرانهم». كما يشير القرار إلى ضرورة قيام السلطات المسؤولة بالتعويض مالياً للذين خسروا ممتلكاتهم ولا يريدون العودة.

تتبنى وكالة التشغيل والإغاثة للاجئين في الشرق الأوسط (UNWRA) منذ عام ١٩٤٩ شؤون اللاجئين، وتقدم لهم المأوى والغذاء. بدأت هذه القضية وكأنها مؤقتة وقد تجاوز عمرها أكثر من ستين عاماً. استناداً إلى منظمة التشغيل والإغاثة يعدّ لاجئاً فلسطينياً كل شخص كان مقيماً في فلسطين بين حزيران/ يونيو ١٩٤٦ وأيار/ مايو ١٩٤٨ وخسر مقر إقامته نتيجة للمواجهات. كانت الأمم

المتحدة عام ١٩٥٠ تتولى شؤون ٧٥٠ ألف شخص، وفي الوقت الراهن يوجد في السجلات ما يقارب ٤,٦ مليون فلسطيني. لقد اعتقد أولئك الذين أقاموا في مخيمات مؤقتة في لبنان وسورية والأردن أنهم سيعودون إلى ديارهم بعد فترة قصيرة. ولكن بعد سنوات تحولت الخيم الأولى إلى بيوت طينية ثم إلى بيوت أكثر تماسكاً وإلى بلدات ومدن صغيرة. وبالرغم من أن المعلومات حول تعداد المخيمات في كل بلد غير دقيقة، يمكن الحديث عن وجود ١٩ مخيماً في الضفة الغربية، و ١٢ في لبنان، و ١٠ في الأردن، و ٩ في سورية، و ٨ في قطاع غزة.

يقطن في الأردن حوالى ٢ مليون من الفلسطينيين الذين يمثلون نصف عدد السكان تقريباً، وأغلبية سكان قطاع غزة هم من اللاجئين، وقسم كبير منهم يعيش على بعد أقل من ١٠٠ كم عن الحدود مع فلسطين القديمة. وهكذا فإن ٧٠ ٪ من الفلسطينيين هم لاجئون سواء أكان ذلك نتيجة للإبعاد عام ١٩٤٨ أو أنهم متحدرون مباشرة من هؤلاء. ما زال الإسرائيليون يؤكدون أن حل هذه المأساة يقع على عاتق إخوتهم العرب، وضرورة احتضانهم في البلدان العربية، لكن المسؤول الأول عن حل مشكلتهم كما يراها الفلسطينيون هو دولة إسرائيل.

٢٨ ـ لماذا يشعر يهود العالم بشدة الارتباط بدولة إسرائيل؟

قديماً، كان اليهود المتدينون يتطلعون إلى مدينة القدس ويتوقون في ابتهالاتهم إلى العودة إلى هذه المدينة ولو من أجل دفنهم فيها فقط، وما زال الكثير منهم يفعل ذلك. إن إقامة دولة إسرائيل بالنسبة إلى أغلبية اليهود يمثل نوعاً من الخلاص وانتقاماً تاريخياً من

الاضطهاد الأزلي وإبادة ستة ملايين من اليهود. تعتبر الصورة التي تمثلها الدولة الجديدة انعكاساً لليهودي المكافح والوجه المعاكس لأولئك الذين تهادنوا أثناء اقتيادهم إلى مراكز التعذيب والإبادة. إنهم ينظرون إلى دولة إسرائيل وكأنها استمرار للذين قضوا وشهروا السلاح في غيتو وارسو عام ١٩٤٣. تكمن الرسالة التي توجهها إسرائيل بأن اليهود لن يسمحوا أبداً بارتكاب مجازر ضدهم، وأن رفاة المحرقة أعاد ولادة الشعب اليهودي، لذلك فقد أقيمت احتفالات بالانتصارات التي حققوها في الحروب، وفي بعض العمليات الناجحة التي نفذتها المخابرات الإسرائيلية كاختطاف الزعيم النازي أدولف إيتشمان في الأرجنتين عام ١٩٦٠، وتحرير طائرة مختطفة في أوغندا عام ١٩٧٦ حيث كان على متنها ركاب إسرائيليون، أو قصف المحطة النووية العراقية عام ١٩٨١.

لقد تضمن خطاب مؤسسي الدولة اليهودية بصورة دائمة إشادة بالقيم الأخلاقية لليهود الذين كسبوا مكانة أسطورية مماثلة لتلك التي حظي بها الرواد الأوائل الذين وصلوا إلى فلسطين «لتجفيف مستنقعات في أرض غير مأهولة». أراد الكثير من الرواد أن يتحولوا إلى «منارة لبقية الأمم» كما اعتاد أن يقول دافيد بن غوريون. لذا فقد عُدّت مزرعة الكيبوتز أنموذجاً، وكان لها مكانٌ بارزٌ في الصورة التي تشعها الدولة المولودة، مع أن هذه المزارع بالكاد تمثل ٤ ٪ من السكان، ويحظر على أي عربي أن ينضم إليها فقط لكونه عربياً.

يتملّك أغلبيةَ يهودِ العالم تعاطفٌ مفعمٌ نحو هذه الدولة التي تمثلهم، ويشعرون أنها دولتهم. فبعد عام ١٩٤٨ وفي كل مرة تعرضت فيها الجاليات اليهودية إلى نزاع ما، لجؤوا إلى دولة إسرائيل أيضاً وكأنها البلد المنقذ. هذا وتقدم دولة إسرائيل نفسها بوصفها

الضمانة الوحيدة ضد العداء للسامية. إن الشعور بالانسجام مع دولة إسرائيل قوي جداً، وأغلبية اليهود يؤيدونها بلا قيد أو شرط.

٢٩ ـ كيف يمكن تفسير الدعم الأمريكي لإسرائيل؟ هل وراءه اللوبي الصهيوني؟

هناك عدة عوامل قد تساعد على فهم أسباب الدعم الأمريكي غير المشروط لدولة إسرائيل. فمن وجهة النظر الإستراتيجية، لا بد من الإشارة إلى انسحاب الفرنسيين والبريطانيين من الشرق الأوسط في أعقاب الحرب العالمية الثانية، وانتقال الصراع على النفوذ بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي إلى المنطقة. ومن جهة أخرى يمكن القول إن الجالية اليهودية في الولايات المتحدة الأمريكية تمتلك نفوذاً اقتصادياً وثقافياً وإعلامياً كبيراً، فهي تثبت وجودها من خلال منظمات متعددة تمارس الضغوط على أعلى مستويات اتخاذ القرارات. يقدر تعداد الجالية اليهودية هناك بخمسة ملايين، أقل بقليل من عدد سكان دولة إسرائيل، وهم ينتمون إلى مراكز قوى يهودية متنوعة موالية لإسرائيل. يفهم من تعبير لوبي «أنه نشاط مشروع من قبل مجلس الشيوخ الأمريكي، ويشتمل على الضغط الذي يمكن أن تمارسه مجموعة من الأفراد أو جمعية على قرارات أعضاء السلطتين التشريعية والتنفيذية لخدمة قضية أو فكرة معينة. تعدّ لجنة الشؤون العامة الأمريكية ـ الإسرائيلية (AIPAC) إحدى أكبر المنظمات تأثيراً ونفوذاً وتصفها صحيفة نيويورك تايمز بـ «المنظمة الأكثر أهمية وتأثيراً في العلاقة بين الولايات المتحدة وإسرائيل».

تعدُّ الولايات المتحدة الأمريكية دعمها لدولة إسرائيل أكثر من إستراتيجي في المنطقة نظراً إلى وجود تجانس بينهما يماثل العلاقة

التي كانت قائمة بين البريطانيين والحركة الصهيونية، فيعدونها بلداً «أبيض وغربياً» يمكن أن يحظى بثقتهم، وهو مطوّق ببلدان عربية حيث تتواجد أيديولوجيات قومية إسلامية معادية للأمريكيين. وإضافة إلى ذلك، لا يمكن تجاهل النفوذ المتنامي للمجموعات القوية التي تعرف بـ «المسيحيين المتصهينين»، التي تضم ملايين الأنصار وآلاف الأساقفة الذين يرون في وجود إسرائيل قوية أمراً مساعداً على قدوم/ عيسى المسيح/ مرة ثانية، علماً أن لهم ثقلاً قوياً في الحزب الجمهوري. كما لا يجوز أن نتجاهل أن الكثيرين في الولايات المتحدة الأمريكية يعتقدون بالقواسم المشتركة للدولتين، لا سيما أنهما قد تأسستا من قبل المستوطنين الأوروبيين الذين كانوا يطمحون إلى إقامة دولة عظمى على حساب السكان الأصليين.

لقد تبين خلال السنوات الأخيرة أنه لا يمكن لأي من بلدان الشرق الأوسط أن يقدم للولايات المتحدة الضمان السياسي الذي توفره لها إسرائيل في علاقة تتجاوز المصالح الاقتصادية، وأن إسرائيل هي البلد الوحيد الذي يتلقى ثلاثة مليارات دولار على شكل هبات من الولايات المتحدة الأمريكية سنوياً. هذا وتعدُّ الطبقة السياسية الإسرائيلية والغالبية العظمى من السكان الإسرائيليين التحالف مع الولايات المتحدة الأمريكية شرطاً لابد منه للبقاء على قيد الحياة.

٣٠ ـ ما هو قانون حق العودة بالنسبة إلى اليهود؟

بعد إقامة دولة إسرائيل وتعريفها بالدولة اليهودية أُقرّ أن لكل يهودي في أي مكان من الكرة الأرضية الحق بالقدوم إليها والعيش فيها. وبما أن أغلبية اليهود يعتقدون أنهم طردوا عام ٧٠ ق.م من أرضهم، فإن كلمة عودة قد أتت لإصلاح الأذى الذي لحق باليهود

الذين عاشوا طيلة قرون في المنفى مشتتين في أرجاء العالم. هناك الكثير من المؤرخين يشككون في حكاية الإبعاد، وبعضهم ولا سيما Shlomo Sand يؤكد بوضوح في كتابه الأخير «كيف ومتى اخترع الشعب اليهودي» ـ أن هذا الشعب لم يوجد أبداً. إلا أنهم قد زرعوا هذه الفكرة في فكر الشعب اليهودي عبر الأجيال، وأعادت الصهيونية ودولة إسرائيل إنتاجها مرة أخرى.

لقد أصدر البرلمان الإسرائيلي عام ١٩٥٠ القانون المذكور الذي يقرّ بأن أي يهودي في العالم يستطيع القدوم للعيش في إسرائيل بدون الأخذ في الحسبان المكان الذي ولد فيه، وعدّل النص الأصلي عام ١٩٥٤ ليشمل أيضاً الأشخاص المتحدرين من جد ذي أصل يهودي.

مشكلة القانون أنه لا يحدد ماهية اليهودي، وما زال النقاش حول القانون قائماً داخل وخارج إسرائيل. وحتى يومنا هذا هناك نزاع بين مختلف التيارات الدينية لتحديد المؤسسة التي يحق لها أن تحدد ماهية من يمكن أن يهاجر إلى إسرائيل بصفة يهودي، ولا سيما أن الجاليات اليهودية المتعددة الطقوس الدينية تختلف حول قبول المرتدين من عائلة غير يهودية.

تستخدم كلمة «Ole» في اللغة العبرية، وتعني من يصعد إلى الأرض المقدسة للدلالة على المهاجر اليهودي الجديد، ويأتي هذا المفهوم من التاريخ اليهودي وهو يختلف عن مجرد الهجرة من بلد إلى آخر بسبب قيمته البالغ فيها بوصفه سيذهب للعيش في بلد الأسلاف، ويعدّ من يغادر إسرائيل بازدراء «Iared» كمن هبط من المكان الأكثر سمواً.

٣١ ـ هل يمكن للفلسطيني الذي ترك أرضه عام ١٩٤٨ أن يعود إليها؟

يطبق قانون حق العودة لعام ١٩٥٠ في دولة إسرائيل فقط على اليهود، ولا يوجد أي قانون يوفر الحماية للعرب الذين عاشوا في فلسطين حتى ولو أثبتوا حيازتهم على سندات تمليك لأراضيهم. عندما أنشئت دولة إسرائيل، حاول الكثير من الفلسطينيين أن يعودوا إلى ديارهم، لكن الدولة الجديدة سنّت جملة من القوانين لمنع العرب الذين غادروا فلسطين خلال الحرب من العودة. لم يطبق فقط على أولئك الذين عبروا الحدود، بل أيضاً على الذين غادروا منازلهم خلال المواجهات العسكرية لإيجاد ملاذ في بيت أحد الأقارب أو الأصدقاء، ولو كان على بعد عدة كيلومترات من المنزل الأصلي ريثما تنتهي الحرب. لقد عدَّتهم القوانين الجديدة «غائبين» وحرموا من حق العودة. كان الهدف الأساسي يكمن في منع الميزان الديمغرافي، أحد أهم الذرائع التي يستخدمها معظم الزعماء الإسرائيليين لإنكار حق العودة للفلسطينيين، لأن عودة الملايين من الفلسطينيين تعني في نظر الإسرائيليين نهاية إسرائيل بوصفها دولة يهودية. أعلن رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو في ١٤ حزيران/يونيو ٢٠٠٩ قائلاً: «يجب حل مشكلة اللاجئين الفلسطينيين خارج حدود دولة إسرائيل، لأنه من الواضح للجميع أن المطالبة بتوطين اللاجئين داخل إسرائيل يتناقض مع استمرارية دولة إسرائيل بوصفها دولة للشعب اليهودي.

إن اللاجئين والمتحدرين منهم حتى يومنا هذا يرغبون في العودة إلى ديارهم، بالرغم من أن فلسطين التي يحنون إليها وكما يتصورونها لم تعد موجودة. حين يقوم أحدنا بزيارة مخيم للاجئين ويسأل طفلاً فلسطينياً من أين هو، عادة ما يشير إلى المكان الأصلي

الذي طردت منه أسرته، مع أن والديه وربما جدوده قد ولدوا في نفس المخيم سواء أكان في لبنان أو الأردن. إن حل هذه المسألة يعدّ لبّ الصراع الفلسطيني ـ الإسرائيلي.

٣٢ ـ لماذا كانت حرب ١٩٦٧ في غاية الأهمية؟

عدّت حرب ١٩٦٧ بمثابة انعطاف في الصراع العربي الإسرائيلي لأنها مثلت الهزيمة الثالثة المتتالية للبلدان العربية أمام إسرائيل، مما أثبت صعوبة تحرير فلسطين من الاحتلال الصهيوني، كما كانوا يطالبون منذ ١٩٤٨. لقد تمخضت الحرب عن احتلال إسرائيل لأراض جديدة: الضفة الغربية وقطاع غزة، شبه جزيرة سيناء وهضبة الجولان. في ستة أيام فقط استطاع الجيش الإسرائيلي أن يهزم الجيوش العربية، واحتلت إسرائيل أراضي تابعة لدول ذات سيادة، وضمت إلى أراضيها آلاف السكان المصريين والأردنيين والسوريين.

عدّ الإسرائيليون نتائج الحرب برهاناً جديداً على التفوق المعنوي «لقلّة على كثرة»، واحتفى العالم الغربي بالضربة التي تعرض لها رمز القومية العربية جمال عبد الناصر العدو الرئيسي للغرب. إعلامياً، باتت الحرب تعرف بـ «حرب الأيام الستة»، وتحولت إسرائيل في نظر أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية إلى قوة عسكرية، وبدا جيشها وكأنه لا يقهر. وصل آلاف المهاجرين إلى إسرائيل تجذبهم نشوة النصر، وحققت نمواً اقتصادياً قياسياً، واقتنع سكانها أن احتلال أراض جديدة عمل تحرري يخدم مصالح إسرائيل.

أما بالنسبة إلى العرب فكان التأثير المعنوي للحرب مدمراً، وما تزال تعرف باسم «النكسة»، وإذا كان تقسيم فلسطين عام ١٩٤٧ قد

أحدث انقساماً في الوطن العربي فإن التوسع الإسرائيلي عام ١٩٦٧ كان نوعاً من الهوان للبلدان العربية.

لقد اكتسبت القضية الفلسطينية بعداً جديداً نتيجة لمجمل العوامل المذكورة ولنزوح آلاف الفلسطينيين الذي باتوا يرزحون تحت الاحتلال العسكري الإسرائيلي المباشر. وبما أن البلدان العربية لم تتمكن من إلحاق الهزيمة بدولة إسرائيل واستعادة الأراضي المفقودة، فقد قرر الفلسطينيون الذين أسسوا منظمة التحرير الفلسطينية عام ١٩٦٤ أنهم ـ بقواهم الذاتية ـ سيأخذون على عاتقهم مهمة تحرير فلسطين والتحرر من وصاية البلدان العربية.

وحتى ذلك الحين، اعتيد الحديث عن النزاع العربي ـ الإسرائيلي، لكن صعود الفلسطينيين إلى المسرح كان بداية للحديث عن النزاع الفلسطيني ـ الإسرائيلي.

٣٣ ـ ما هي الأراضي التي احتلتها إسرائيل في حرب ١٩٦٧؟

احتلت إسرائيل عام ١٩٦٧ أراضي من ثلاثة بلدان عربية، وبسيطرتها على الضفة الغربية التي كانت تحت وصاية المملكة الأردنية الهاشمية، وعلى قطاع غزة الذي كان تحت الوصاية المصرية أصبحت تحتل كل فلسطين التي كانت تحت الانتداب البريطاني.

كما احتلت شبه جزيرة سيناء حتى قناة السويس، وأعادتها إلى مصر عام ١٩٨٢، وفي الشمال احتلت هضبة الجولان التي كانت تشكل جزءاً من محافظة سورية تدعى القنيطرة، وأسفر احتلال الجولان عن طرد ١٥٠ ألف نسمة كانوا يسكنون هناك ودمرت أكثر من ١٥٠ قرية. حافظ الإسرائيليون على خمس قرى صغيرة مأهولة بالدروز الذين يمثلون أقلية مسلمة لها أهميتها في سورية ولبنان. لقد

دُمّرت مدينة القنيطرة التي كان يبلغ تعداد سكانها سبعين ألف نسمة تدميراً وحشياً، وسيطر الإسرائيليون على الموارد الطبيعية للمدينة وبخاصة المياه.

في عام ١٩٨١ طبقت إسرائيل القانون الإسرائيلي في هضبة الجولان، وضمتها بالكامل، إلا أن قرار الضم لم يحظ باعتراف دولي، وأرغم سكان القرى الخمس التي لم تدمر على تبني الجنسية الإسرائيلية ضد إرادتهم.

لقد طبقت في المناطق الثلاث سياسة الاستيطان بصورة مماثلة، وبدئ بإقامة قرى إسرائيلية صغيرة، وفي بعض الحالات مثل معالي الدميم... تحولت مع الزمن إلى مدن حقيقية نتيجة لاستخدام أسلوب الاستعمار الصهيوني منذ الأيام الأولى.

كان لمدينة القدس وضع خاص، لكن بعد أيام من انتهاء الحرب طبقت الحكومة الإسرائيلية القانون الإسرائيلي على الشطر الشرقي من المدينة وضمتها بالقوة، لكن الأمم المتحدة لم تعترف بأي من هذه الإجراءات الإسرائيلية، وأصدرت في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٦٧ القرار الشهير رقم/ ٢٤٢/ الذي يطالب بالانسحاب العاجل منها.

٣٤ ـ ماذا كان موقف الأمم المتحدة من حرب ١٩٦٧؟

أصدر مجلس الأمن في ٢٢ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٦٧ قراره الشهير رقم ٢٤٢ طالب فيه إسرائيل بالانسحاب من الأراضي التي احتلتها خلال تلك الحرب (الضفة الغربية وقطاع غزة والجولان) والعودة إلى حدود ماقبل الحرب، أي إلى حدود الرابع من حزيران/ يونيو عام ١٩٦٧، أي إلى «الخط الأخضر» الشهير لهدنة ١٩٤٩. أكدت الهدنة أن على كافة الدول أن تتمكن من «العيش داخل حدود

معترف بها وآمنة» وذلك في إشارة واضحة إلى إسرائيل التي لم تعترف بها البلدان العربية. كما طرح «إيجاد حل عادل لمشكلة اللاجئين وانسحاب القوات الإسرائيلية من الأراضي التي احتلتها خلال النزاع الأخير».

أثارت العبارة الأخيرة من القرار الكثير من الجدل لأن الإسرائيليين أوجدوا لها تفسيراً غريباً. تقول العبارة: «انسحاب القوات الإسرائيلية من الأراضي التي. . .» ويمكن تفسيره بانسحاب من الأراضي كلها التي احتلت خلال الحرب. لكن بما أن الأمم المتحدة تصدر قراراتها بلغات مختلفة، فإن النص الإنكليزي يقول «انسحاب القوات الإسرائيلية من أراض. . .» مما يمكن تفسيره بأن إسرائيل ليست ملزمة بالانسحاب من الأراضي كافة بغية إضفاء الشرعية على بقائها في جزء منها. الحقيقة أن الإسرائيليين هم الذين يتمسكون بالنص الإنكليزي كذريعة لعدم الانسحاب من الأراضي كلها. إن النص المطابق باللغة الإسبانية لوزارة الخارجية الإسرائيلية يقول: «انسحاب القوات الإسرائيلية من الأراضي. . .»، والنص الأصلي للأمم المتحدة أيضاً يبين بوضوح «من الأراضي. . .».

لقد تحول هذا القرار إلى قضية هامة في جميع النقاشات حول النزاع بين الدول العربية وإسرائيل، وبين الفلسطينيين والإسرائيليين.

٣٥ ـ ماذا كان موقف الشعب الإسرائيلي من احتلال الضفة وقطاع غزة؟

طرح الخطاب الرسمي الإسرائيلي مقولة مفادها أن الاحتلال سيكون مؤقتاً، وقد اعتادت وسائل الإعلام أن تستخدم عبارة «أراض تابعة إدارياً» بمعنى الإدارة الانتقالية. وفي الوقت نفسه كانت

هناك استمرارية للتفكير البراغماتي لعام ١٩٤٨، إذ كانت تطرح إسرائيل أنه في حال حدوث هجوم يمكن الاستيلاء على أية أرض دفاعاً عن البلاد وسوف تبت في شأنها لاحقاً. رأت الحكومة الإسرائيلية أنه بالإمكان استخدام الاحتلال ورقة رابحة للتفاوض مع البلدان العربية، وأن إعادتها يمكن أن تتم مقابل الاعتراف بوجود وشرعية دولة إسرائيل التي قوبلت بالرفض منذ عام ١٩٤٨.

تميز احتلال هذه الأراضي بديناميكية خاصة، إذ لم تجر أية مفاوضات بين إسرائيل والوطن العربي، وتدريجياً بدأ جزء كبير من المجتمع الإسرائيلي يعارض إعادتها بذريعة أنها تشكل جزءاً مما عرف بـ «مملكة إسرائيل» وأن الاستيلاء عليها أمر شرعي وفقاً للإنجيل والتاريخ. وفي عام ١٩٧٧ فاز اليمين الإسرائيلي لأول مرة بالانتخابات العامة، وبدلاً من «أراض تابعة إدارياً» باتت تعرف رسمياً في الهيئات التعليمية ووسائل الإعلام باسم «يهودا والسامرة» كمرادف للضفة الغربية، وتم تحويلها إلى مملكة يهودية كما وردت تسميتها في الإنجيل.

احتلت مدينة القدس مكانة رئيسية في المجتمع الروحي الإسرائيلي لوجود المدينة القديمة المسورة في الجزء الشرقي منها، كما يوجد في داخلها الجدار الغربي لمعبد القدس القديم الموقر من قبل الشعب اليهودي. أدت نشوة النصر الساحق وديناميكية الأحداث إلى تأجيل أو تجاهل القضية الفلسطينية التي تحولت إلى محور الصراع العربي - الإسرائيلي.

حذرت حفنة ضئيلة من الإسرائيليين من مغبة تحول احتلال أرض يقطنها حوالى مليون نسمة إلى جيش احتلال تقليدي قمعي.

وإضافة إلى ذلك فقد بدأت الحدود ـ التي عرفت بـ «الخط الأخضر» الذي فصل بين الأردن وإسرائيل ـ تزول من الخرائط الإسرائيلية.

٣٦ ـ هل تشكل كلٌ من مصر وسورية والأردن جزءاً من الصراع بين الفلسطينيين والإسرائيليين؟

للبلدان الثلاثة حدود مباشرة مع إسرائيل، وقد شاركت في حرب ١٩٤٨ لتفادي ولادتها، وخسرت أراضي خلال حرب ١٩٦٧، مع أنها انتهجت سياسات مختلفة. ففي الوقت الذي رفعت فيه حكومتا مصر وسورية راية القومية العربية، وخاضتا حرب تشرين عام ١٩٧٣ ضد إسرائيل لاستعادة الأراضي التي احتلت عام ١٩٦٧، حافظت الأردن على نظام الحكم الملكي ولم تشارك في تلك الحرب. استعادت مصر في عام ١٩٨٢ شبه جزيرة سيناء في إطار إتفاقية للسلام مع إسرائيل، وكانت أول دولة عربية تعترف بها رسمياً، وإثر ذلك تخلت عن مطالبتها بقطاع غزة.

هذا وما زالت الحكومة السورية تطالب إسرائيل بإعادة مرتفعات الجولان التي احتلتها عام ١٩٦٧، وتضع ذلك شرطاً أساسياً لأية مفاوضات مباشرة مع الحكام الإسرائيليين. ونظراً إلى عدم وجود فلسطينيين في الجولان فإن علاقتها بالنزاع الحالي تتوقف على مصالحها الإقليمية.

وللمملكة الأردنية الهاشمية مصلحة خاصة بالنزاع، لأن الفلسطينيين يشكلون نسبة عالية من سكانها، وكان لسكان الضفة تمثيل برلماني فيها إلى أن احتلتها إسرائيل عام ١٩٦٧، ويطلق اسم الضفة الغربية على تلك المنطقة نظراً إلى موقعها الجغرافي غرب نهر الأردن الذي ينبع من لبنان، ويرسم الحدود الطبيعية بين فلسطين

والأردن. ومع تنامي أهمية منظمة التحرير الفلسطينية أعلن ملك الأردن عام ١٩٨٨ تخلي بلاده عن الضفة الغربية.

استناداً إلى ما تقدم، وبغضّ النظر عن بعض القضايا الحساسة ـ مثل الحدود بين مصر وقطاع غزة ـ ليس لأي من البلدان الثلاثة مشاركة مباشرة في النزاع الفلسطيني ـ الإسرائيلي بالمعنى الدقيق للعبارة، لكن عدم وجود حل للنزاع المذكور يؤثر بصورة مباشرة في السياسة الداخلية لهذه البلدان.

٣٧ ـ لماذا تحتل مدينة القدس أهمية خاصة بالنسبة إلى اليهود والمسلمين والمسيحيين؟

تحتل مدينة القدس مكانة خاصة في حياة المجتمعات الدينية الثلاثة، وخاصة المدينة القديمة الصغيرة التي لا تكاد تبلغ مساحتها كيلو متر واحداً، إنها محاطة بالأسوار القديمة ولها سبع بوابات. تعكس الأحياء الأربعة المتواجدة داخل المدينة حياة المجتمعات التي سكنتها تاريخياً، اليهودية والمسيحية والإسلامية والأرمنية.

بالنسبة إلى اليهود هناك علاقة مباشرة بين المدينة وجذورهم التاريخية وفقاً لما جاء في نصوص العهد القديم، ولهذا السبب يسمونها مدينة الملك داوود، ومن جهة أخرى لقد ردد اليهود عبارة «السنة القادمة في القدس» لإبراز التمسك بالمدينة، كما يوجد فيها «الجدار الغربي المعروف في اللغة الإسبانية بحائط المبكى[*]»، ويقال

(*) المقصود هو حائط البراق أو «المبكى» الذي تعود للمسلمين وحدهم ملكية الحائط الغربي منه، كما ورد في قانون صادر في أيار/مايو ١٩٣١ من «مجلس الملك الخاص» لقصر بكنغهام الملكي البريطاني، وفي تقرير اللجنة الدولية المقدم في ١٩٣٠ إلى عصبة الأمم (المحرّر).

إن هذا الجدار قد شكّل جزءاً من المعبد اليهودي القديم في القدس الذي يعود بناؤه إلى عام ٣٧ ق.م.، وقد دمّره الرومان عام ٧٠ ب.م. ويعتبره المسيحيون المكان الذي قضى فيه المسيح أيامه الأخيرة، حيث يوجد طريق الألم مكان الصلب والانبعاث(*). ويوقر المسلمون مدينة القدس التي تعني بالعربية المكان المقدس، حيث يوجد المسجد الأقصى والحرم الشريف وقبة الصخرة المكان الذي صعد منه النبي محمد إلى السماء عام ٦٣١ ب.م وفقاً للديانة الإسلامية.

كانت المدينة منقسمة إلى شطرين بين ١٩٤٨ ـ ١٩٦٧ ولم تحتل مكاناً هاماً في الخطاب السياسي الإسرائيلي أو الفلسطيني، كما لم يرد اسمها ولو مرة واحدة في إعلان استقلال الدولة الإسرائيلية، وبقي حائط المبكى تابعاً للأراضي الأردنية، ولم يكن بمقدور اليهود زيارته، ولم يذكر في الوثائق التأسيسية لمنظمة التحرير الفلسطينية. وقد بدأ النزاع حول مدينة القدس بعد حرب١٩٦٧ بسبب الاحتلال الإسرائيلي للجزء الشرقي من المدينة، وتوسيع بلديتها وضم الأحياء العربية المحيطة بها. وفي عام ١٩٨٠ وافق البرلمان الإسرائيلي على قانون عدّت فيه القدس كاملة وموحدة عاصمة لإسرائيل، لكنه قوبل برفض شامل من المجتمع الدولي.

٣٨ ـ هل يسكن جميع الفلسطينيين في الأراضي التي احتلتها إسرائيل عام ١٩٦٧؟

إن أغلبية الفلسطينيين، أي ما يقارب أربعة ملايين تقطن في

(*) لا تقع «طريق الآلام» بالقدس بالقرب من حائط البراق «المبكى» وإنما هي فرع من بعض الطريق المتفرعة عن «سوق باب خان الزيت» المؤدية إلى كنيسة القيامة. والمسافة بينها وبين الحرم القدسي وحائط المبكى تزيد على الكيلو مترين» (المحرّر).

الضفة الغربية وقطاع غزة(*)، وهم يرغبون في إقامة دولتهم المستقلة. أما البقية فهي مشتتة وتعيش وقائع متباينة وفقاً للمكان الذي يتواجدون فيه. لقد اضطر الجزء الأكبر منهم الذين هُجّروا من ديارهم بعد ١٩٤٨ إلى العيش في مخيمات للاجئين في لبنان والأردن وسورية. لقد تسنى للكثيرين الوصول إلى بلدان عربية أخرى وتمكنوا من الاندماج ولو جزئياً في بعض المجتمعات، وتشتت آخرون في أنحاء عدة من العالم كالولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا وأمريكا الجنوبية، وأن حوالى مليون منهم يعيشون في إسرائيل ويحملون الجنسية الإسرائيلية.

أدى التشتت إلى خلق أوضاع متباينة، وكان للوعي بالانتماء إلى شعب واحد علاقة بهذه الأوضاع. فقد تعرض الفلسطينيون الذين عاشوا في مخيمات للاجئين في فلسطين ولبنان خلال سنوات إلى قصف الطائرات الإسرائيلية، وعانوا الحروب الأهلية والصراعات الداخلية، فاختلفت حياتهم اليومية عن حياة أولئك الذين كانوا يعملون في الكويت بعيداً عن حدود وطنهم. تمكن هؤلاء الذين عاشوا في أجواء ودية وسلمية من المحافظة على تقاليدهم وعاداتهم أكثر من أولئك الذين عاشوا في أوروبا وأمريكا. وكانت تجربتهم مختلفة عن الذين عاشوا في الضفة والقطاع تحت الاحتلال الإسرائيلي المباشر منذ عام ١٩٦٧.

ولو أن جميعهم يُعدّون أنفسهم جزءاً من الشعب ذاته لم يخل تكوين الوعي المشترك من النقاش. في عقد الخمسينيات كانت فكرة

(*) الصحيح: هو «أن مواطني الضفة الغربية وقطاع غزة لا يجاوزون ثلث الشعب العربي الفلسطيني، فيما غالبيته تقيم في الشتات العربي والدولي (المحرّر).

جمال عبد الناصر تتمحور حول توحيد الأمة العربية التي جزأتها القوى الغربية. حاولت القومية العربية أن تترك جانباً الهويات الإقليمية لمختلف البلدان العربية، وأيد كثير من الفلسطينيين هذا المشروع إلى أن اكتشفوا السمات الخاصة بالهوية الفلسطينية التي تشكلت عبر الانتماء إلى شعب ذي تاريخ مشترك، وإلى أمة أكثر شمولية هي الأمة العربية.

٣٩ ـ ما هي أوضاع الفلسطينيين داخل دولة إسرائيل؟

بعد إقامة دولة إسرائيل استقر داخل حدودها ما يقارب ١٠٠ ألف عربي من المسلمين والمسيحيين، أي ما يعادل ١٥ ٪ من تعداد السكان آنذاك. وقد فقد جميعهم كل أنواع الصلات والروابط مع الفلسطينيين المبعدين. كان أغلبهم يعيشون في الشمال، في ضواحي المدينة المسيحية «الناصرة» وسط فلسطين، وفي مدن مختلطة من العرب واليهود مثل حيفا وعكا، وتقع المدن الثلاث على البحر المتوسط. صحيح أن الدولة الجديدة قد منحتهم الجنسية الإسرائيلية، إلا أنهم عاشوا تحت وطأة نظام عسكري صارم بين عامي ١٩٤٨ ـ ١٩٦٧ وفرضت عليهم مختلف أنواع القيود، وحولتهم إسرائيل إلى مواطنين من الدرجة الثانية، وحرمتهم من الهوية الوطنية العربية، وأطلقت عليهم اسم المسلمين أو المسيحيين مما دعا بالشاعر محمود درويش إلى كتابة قصيدة بعنوان «بطاقة هوية» لتأكيد الهوية العربية التي حرموا منها في السجل المدني. وهكذا تحول الشاعر محمود درويش بمرور الزمن إلى رمز النضال لاستعادة الهوية للفلسطينيين كلهم.

ومع الأخذ في الحسبان مطامع الصهيونية بشأن إقامة دولة لليهود فقط، فقد بدأت في عقد الستينيات خطة لتهويد المناطق التي

كانت تقطنها أغلبية عربية، فتم الاستيلاء على أراض في كثير من القرى والمدن العربية لبناء بلدات يسكنها اليهود فقط. في ٣٠ آذار/ مارس عام ١٩٧٦ نظم السكان العرب إضراباً عاماً عرف باسم «يوم الأرض» احتجاجاً على سلب أراضيهم. فقوبل الإضراب بإجراءات قمعية صارمة أسفرت عن مقتل ٦ من الشبيبة، إلا أنه تحول إلى أيقونة في سبيل استعادة الهوية والوعي الفلسطيني للسكان العرب الذين أطلقت عليهم إسرائيل مصطلح «العرب الإسرائيليين».

هذا وما يزال هؤلاء يعدّون أنفسهم جزءاً لا يتجزأ من الشعب الفلسطيني، بالرغم من أنهم لم يعانوا الشتات أو المنفى. أعلن السياسيون الإسرائيليون في كثير من المناسبات، بخاصة بنيامين نتنياهو أن هؤلاء العرب يجسدون تهديداً ديمغرافياً حقيقياً لاستمرارية إسرائيل بوصفها دولة يهودية، وأن البعض قد طالب جهراً بطردهم خارج إسرائيل، ويمثلون في الوقت الراهن حوالى ٢٠ ٪ من السكان. واستناداً إلى الجمعية الإسرائيلية (SIKKUY) من أجل المساواة، إنهم يعانون التمييز ويتم تجاهلهم في وسائل الإعلام، ولا وجود للكتابة العربية في بوابات الوزارات، على الرغم من أنها لغة رسمية للدولة.

٤٠ ـ ما هي منظمة التحرير الفلسطينية؟

أدى نزوح وشتات الفلسطينيين بعد عام ١٩٤٨ إلى تذرية أولئك الذين تركوا أراضيهم وتحولوا إلى لاجئين. لقد دمر مجتمع بأسره بدون وجود أية قيادة له، تشتتوا في بقاع العالم وفي مخيمات اللاجئين وتمسكوا بالحياة آملين من البلدان العربية أن تتمكن من تحرير فلسطين كي يعودوا إلى وطنهم.

تأسست منظمة التحرير(*) في الكويت عام ١٩٥٩، وعرفت باسم فتح (حركة التحرير الفلسطينية) بقيادة ياسر عرفات. وقد تأثر الفلسطينيون بالأفكار القومية التي كانت سائدة في أنحاء الوطن العربي كله بعد الثورة التي قادها جمال عبد الناصر الذي أسقط الملكية في مصر عام ١٩٥٢، والكفاح المسلح لجبهة التحرير الوطنية الجزائرية ضد الاحتلال الفرنسي. دعت الدول العربية عام ١٩٦٤ إلى عقد مؤتمر في القدس الشرقية لتأسيس منظمة التحرير الفلسطينية المرتبطة بتحرير الأمة العربية وفقاً لاعتقاد جمال عبد الناصر. كان الجذع الرئيسي لمنظمة التحرير مؤلفاً من أعضاء فتح التي انضمت إليها مؤخراً منظمات فلسطينية أخرى تحت راية فتح. وقد أسهمت هزيمة البلدان العربية عام ١٩٦٧ في تعزيز دور منظمة التحرير بقيادة ياسر عرفات إذ توصل الفلسطينيون إلى قناعة بأن البلدان العربية غير قادرة على تحرير فلسطين إثر الفشل في ثلاث حروب. ومنذ ذلك الحين وضعوا نصب أعينهم خوض المعركة لتحرير أرضهم.

تجلّت كفاءة المنظمة في استعادة الهوية الفلسطينية المجزّأة والمفكّكة نتيجة للشتات، واستطاعوا أن ينقلوا القضية الفلسطينية لتصبح مركز السياسة العالمية من خلال القيام بعمليات عسكرية نوعية كاختطاف الطائرات التي استأثرت بإشادات الوطن العربي، وعرفها العالم بـ «المقاومة الفلسطينية». في عام ١٩٧٤ اعترفت القمة العربية السابعة التي عقدت في الرباط بمنظمة التحرير الفلسطينية

(*) الصواب: حركة التحرير الوطني الفلسطينية (فتح) تأسست بقيادة عرفات في الكويت سنة ١٩٥٩، أما «منظمة التحرير الفلسطينية» في القدس فكان يرأسها أحمد الشقيري تنفيذاً لقرار القمة العربية (المحرر).

بوصفها الممثل الوحيد والشرعي للشعب الفلسطيني وأعطتها صفة شرعية رسمية لأول مرة. وبعد زمن قصيرة وجهت الأمم المتحدة دعوة إلى ياسر عرفات لحضور اجتماع الجمعية العامة حيث نوقشت القضية الفلسطينية وحصلت منظمة التحرير على صفة مراقب وسمح لها بالمشاركة في أعمال الجمعية بدون حق التصويت.

٤١ ـ ما هو الميثاق الفلسطيني لعام ١٩٦٨؟

تأسست منظمة التحرير الفلسطينية رسمياً عام ١٩٦٤، وبعد فترة وجيزة أعدت وثيقة اعتبرت بمثابة إعلان مبادئ، أقرّ فيها أن فلسطين جزء لا يتجزأ من الأمة العربية، وأن الحدود التي رسمها الانتداب البريطاني غير قابلة للتعديل، وأن الهوية الفلسطينية تنتقل من الآباء إلى الأبناء، كما جاء فيها أن الفلسطينيين هم جميع أولئك الذين كانوا يقطنون في فلسطين حتى عام ١٩٤٧، وينسحب ذلك على الذين ظلوا فيها أو طردوا منها.

واستجابة للتضامن العربي ونسائم القومية العربية التي كانت تهب آنذاك، عدّت الوثيقة أن الوحدة العربية وتحرير فلسطين هدفان متلازمان نتيجة لثقة الفلسطينيين بأن الوحدة العربية كفيلة بتحرير فلسطين، وقد حملت الوثائق الأولى توقيع أحمد الشقيري المحامي الفلسطيني المولود في لبنان خلال فترة الحكم العثماني، الذي عمل مع مختلف الحكومات العربية في ذلك الوقت.

يؤكد الميثاق بصورة جازمة عدم شرعية «وعد بلفور» وتقسيم فلسطين عام ١٩٤٧ وإقامة دولة إسرائيل، ويعترف الميثاق الأول باليهود كديانة بدون أي شكل من الحقوق القومية، ويعدّ الصهيونية حركة استعمارية عنصرية وفاشية، وأن اليهود من أصل فلسطيني هم

فلسطينيون إذا كانوا على استعداد للعيش بسلام وإخلاص في فلسطين. وقد عدّل الميثاق فيما بعد ليعترف فقط بأولئك الذين عاشوا في فلسطين قبل الغزو الصهيوني.

تجلّ الهدف الرئيسي للميثاق في تكريس جميع الإمكانيات المتوفرة لتحرير فلسطين، إلا أنه عدّل مرات عدة، وأهم التعديلات التي طرأت عليه جرت بعد حرب ١٩٦٧ إثر تولي عرفات قيادة منظمة التحرير وانتهاجه سياسة مستقلة عن الحكومات العربية.

وفي الوقت الراهن يمكن القول إن الميثاق هو مجرد وثيقة تاريخية لإعلان مبادئ حول الهوية الفلسطينية في عقد الستينيات، نظراً إلى التغيرات المتعددة التي طرأت على العلاقات بين الفلسطينيين والإسرائيليين.

٤٢ ـ لماذا لجأ الفلسطينيون إلى العنف؟

عقب انتهاء حرب ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩، حاول كثير من الفلسطينيين العودة إلى وطنهم الأم لكن إسرائيل حالت دون ذلك. لقد حفزتهم خسارة الأرض والهوية إلى تأسيس منظمات سياسية في المخيمات، وبدأت منظمة التحرير أنشطتها بوصفها حركة تحرير وطنية تستقطب آلاف الأشخاص الذين فقدوا ممتلكاتهم كافة، وقد أرغمتهم المعاناة في المخيمات إلى استخدام أساليب العنف.

التحق فلسطينيو المخيمات بمنظمة التحرير، تحرّكهم المشاعر الوطنية لتحرير أرضهم من المحتلين بسبب تشتتهم الفكري والاجتماعي، إذ لم يعد أمامهم خيار آخر. تركز هدفهم على العودة إلى الأرض بدون تقديم تنازلات مهما بلغت التضحيات. عدّوا الكفاح المسلح الأسلوب الوحيد لتحقيق أهدافهم، لأن إسرائيل لم

تسمح لهم بالعودة بصورة سلمية، ولم يشكل هذا الأسلوب مخاطر بالنسبة إليهم، ولا سيما أنهم فقدوا جلّ ما يمتلكونه.

شكّل الافتقار إلى قاعدة اقتصادية وطنية وغياب الأطر الحكومية عائقاً هاماً أمام إقامة نوع آخر من التنظيمات. ولا بد من الأخذ في الحسبان أن الفلسطينيين لم يكونوا مقيمين في دولة ذات مؤسسات ديمقراطية تمكنهم من طرح أفكارهم ومطالبهم، بل كانوا مشتتين في بلدان متعددة.

من جهة أخرى، كان العالم الثالث في بداية الستينيات يشهد نمواً لحركات التحرير الوطنية التي شكّلت مصدر إلهام لنضالهم، وخاصة حركة التحرير الوطنية الجزائرية، وحركة الفيتكونغ الفييتنامية، والثورة الكوبية في أمريكا اللاتينية التي توّجت انتصاراتها بالعنف الثوري. وقبل الاحتلال العسكري للضفة والقطاع أطلق «تشي غيفارا» عبارته الشهيرة «إيجاد اثنين أو ثلاث أو الكثير من أمثال فييتنام»، وقد أراد الفلسطينيون أن يكونوا جزءاً من هذه الإستراتيجية العالمية.

وعلى الرغم من خصوصية وضع الفلسطينيين، فإن اختيارهم أسلوب العنف لتحقيق أهدافهم في التحرر لم يختلف عن التجارب الأخرى التي خاضتها الشعوب ضد الاحتلال الأجنبي، وإن الحركة الصهيونية نفسها استخدمت السلاح ضد البريطانيين في فلسطين.

٤٣ ـ ماذا يُقصد بأيلول الأسود؟

بعد حرب ١٩٦٧، صعّدت أغلبية التنظيمات داخل منظمة التحرير الفلسطينية من حدّة انتقاداتها للحكومات العربية التي لم تتمكن من تحرير فلسطين خلال ثلاث حروب. لقد أخفقت في

حرب ١٩٤٨، بالإضافة إلى إخفاق عبد الناصر في حرب ١٩٥٦ التي شنتها إسرائيل وبريطانيا وفرنسا ضد مصر إثر تأميم جمال عبد الناصر قناة السويس، وبعد حرب ١٩٦٧ رفعت أغلبية التنظيمات الفلسطينية شعار إسقاط الأنظمة العربية الرجعية الحليفة للإمبريالية، باستثناء سورية ومصر، اللتين كانتا تحكمهما أنظمة تنادي بوحدة الأمة العربية. كانت الأردن ـ التي يحكمها الملك حسين ـ تأوي عدداً من مخيمات اللاجئين حيث نمت المقاومة الفلسطينية، وتعززت التنظيمات السياسية التي كانت تعلن جهراً عن قلب نظام الحكم، وشكّلت ما يسمى بدولة داخل دولة، وكانت تشن عمليات عسكرية ضد إسرائيل، وكان الجيش الإسرائيلي يدخل إلى عمق الأراضي الأردنية لملاحقة الفلسطينيين مما أثار حفيظة الملك حسين الذي شعر بالخطر على نظام حكمه.

وفي أيلول/سبتمبر عام ١٩٧٠ اختطفت المنظمات الفلسطينية طائرات عدة، واقتادتها إلى الأردن، ودمرتها أمام شاشات التلفزيون لإظهار القوة التي بلغتها المقاومة الفلسطينية. وفي نفس الشهر شن الملك حسين عملية عسكرية واسعة النطاق لتصفية المنظمات الفلسطينية المسلحة، وبعد شهرين من المواجهات وسقوط آلاف الضحايا (١٠ آلاف استناداً إلى عرفات) غادرت القيادة الفلسطينية الأردن متوجهة إلى لبنان، وبعد وهلة ظهرت منظمة فلسطينية باسم «أيلول الأسود»، التي نفذت أول عملية عسكرية لها في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧١ خلال انعقاد القمة العربية في القاهرة، وقامت باغتيال وصفي التل الذي كان يشغل منصب رئيس الوزراء الأردني أثناء المواجهات بين الفلسطينيين والجيش الأردني.

وإثر ذلك انقطعت العلاقات بين منظمة التحرير الفلسطينية

والمملكة الأردنية الهاشمية إلى أن قام عرفات برفقة العقيد معمر القذافي بزيارة إلى الأردن عام ١٩٧٨ لإجراء مصالحة مع الملك حسين، وقد تعرض إلى انتقادات حادة من مختلف التيارات الفلسطينية بسبب تلك الزيارة.

٤٤ ـ مَنْ هو ياسر عرفات؟

تختلف السير الذاتية المتعددة حول حياة عرفات على تحديد مكان ولادته، لكن أغلبيتها تؤكد أنه هو الذي وهب الحياة لمنظمة التحرير الفلسطينية في أعقاب حرب ١٩٦٧ إثر خلافته لأحمد الشقيري. وقد كرس نفسه خلال عقد الخمسينيات لتنظيم الطلاب الفلسطينيين في مصر، وأسس (مع خليل الوزير/أبو جهاد) أولى الخلايا السرية لحركة فتح، في الكويت، وقاد المقاومة الفلسطينية في الأردن عام ١٩٧٠.

استقبلته الأمم المتحدة في ١٣ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٤ كرئيس دولة، وذلك بعد شهر من تصويت الأغلبية الساحقة على دعوته إلى الاجتماع، وقد أيدته ١٠٥ دول مقابل معارضة أربع دول وامتناع عشرين دولة عن التصويت، وانسحب الوفد الإسرائيلي حين دخل عرفات إلى قاعة المداولات، إذ قوبل بتصفيق معظم الوفود.

ظهر بمظهر التحدي، وعلى رأسه الكوفية العربية التقليدية التي كان يستخدمها بصورة دائمة، وتحولت فيما بعد إلى رمز للقضية الفلسطينية. تحدث خلال الجلسة عن تاريخ الشعب الفلسطيني قائلاً: «إنني أحمل غصناً من الزيتون في يد، وبندقية المحارب من أجل الحرية في اليد الأخرى، لا تدعوا غصن الزيتون يسقط من يدي».

كان حضوره أمام الأمم المتحدة أول انتصار كبير للقضية الفلسطينية التي ارتبطت بشخصيته، ولا بد من التذكير أن القرار/

٢٤٢/ الذي صدر عام ١٩٦٧ لم يتطرق إلى الفلسطينيين، واقتصر على الإشارة بإبهام إلى اللاجئين، وكان الإسرائيليون آنذاك يرفضون الاعتراف بوجود الشعب الفلسطيني، كما اعتاد العالم أن يوجه إليهم أصابع الاتهام وعدّهم إرهابيين.

بعد عشر سنوات من تأسيسها، تحولت منظمة التحرير الفلسطينية إلى محور الصراع الإقليمي تاركة الصراع بين إسرائيل والبلدان العربية في المرتبة الثانية، واكتسبت شخصية عرفات أهمية خاصة أثناء الغزو الإسرائيلي للجنوب اللبناني عام ١٩٨٢، وتعرضت بيروت لقصف إسرائيلي مكثف، كما جرت محاولات لاغتياله، إلا أنه تمكن من التفاوض على انسحابه إلى تونس. واعترف الفلسطينيون بإسرائيل عام ١٩٨٨ في ظل قيادته غيرالقابلة للجدال، كما أيدوا توقيعه عام ١٩٩٣ على اتفاقيات أوسلو التي تمخضت عن منحه جائزة نوبل للسلام.

وعلى الرغم من خلافاته السياسية مع الكثير من الزعماء الفلسطينيين، والانتقادات التي تعرض لها بسبب مواقفه المهادنة أو القرارات التي اتخذها (توقيع اتفاقيات السلام)، فإن الفلسطينيين يقرّون بقيادة أبي عمار ويطلقون عليه «أبا النضال».

في آخر أيامه، وقبل أن توافيه المنية، عاد الأمريكيون والإسرائيليون إلى وصمه بكلمات مقرّعة، وحملوه مسؤولية العمليات الاستشهادية، وفرضوا عليه حصاراً دام أكثر من عامين في مقر القيادة العامة الفلسطينية بمدينة رام الله في الضفة الغربية. وقد قارن الإسرائيليون خلال عقود بينه وبين هتلر، وعدّوه ألد أعدائهم، كما اعتاد رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق ميناحيم بيغن أن يشير إليه

بازدراء «هذا الرجل ذو الشعر في الوجه» - يقصد لحيته الخفيفة - أما بالنسبة إلى الفلسطينيين فإنه لم يتقهر حتى النهاية، ولم يستسلم البتة.

د٤ - ماذا حدث في الألعاب الأولومبية بميونخ عام ١٩٧٢؟

تحولت المسألة الفلسطينية بعد حرب ١٩٦٧ إلى قضية مركزية في السياسة الدولية، وأسفرت الهزيمة العسكرية الثالثة للبلدان العربية إلى حدوث تغيير في قيادات منظمة التحرير الفلسطينية إذ قررت القيادة الجديدة العزوف عن الاعتماد على الدول العربية لتحقيق الاعتراف بمطالبهم الوطنية، وانتقلت إلى العمل بصورة مستقلة. كان السؤال الأهم يدور حول كيفية التوصل إلى الإقرار بحقوقهم، لا سيما أن العالم كان يعدّهم مجرد لاجئين بلا هوية، وقلّة من الدول كانت تنظر إليهم بوصفهم شعباً.

رسمت منظمة التحرير الفلسطينية إستراتيجية مماثلة لتلك التي استخدمتها حركات التحرير الوطنية في العالم الثالث: استخدام جميع وسائل القوة لضرب العدو الرئيسي وحلفائه في العالم، وبدأت مرحلة جديدة من اختطاف الطائرات والتفجيرات داخل إسرائيل لاستقطاب الرأي العام العالمي، فكانت صورة ليلى خالد الشابة الفلسطينية البالغة من العمر ٢٥ عاماً وهي تشارك في اختطاف طائرة تابعة للخطوط الجوية الإسرائيلية «العال» تجوب العالم كرمز للمقاومة الفلسطينية. لم يعر الفلسطينيون أذناً صاغية للإدانات الدولية حول استخدامهم أساليب العنف ضد المدنيين الإسرائيليين، وتمكنوا خلال سنوات (١٩٦٨ - ١٩٧٤) أن يحققوا ما لم تنجزه البلدان العربية طيلة عشرين عاماً (١٩٤٨ - ١٩٦٨)، واعترف العالم بمطالب الشعب الفلسطيني وحقه في إقامة دولة. كانت المقاومة الفلسطينية حديث

الساعة في العالم، واعتبرتهم الشعوب العربية أبطالاً وكأنهم الوحيدون الذين قرروا مواصلة النضال.

كانت عملية اختطاف الرياضيين الإسرائيليين خلال الألعاب الأولومبية في ميونخ عام ١٩٧٢ إحدى أكثر العمليات نجاحاً في استقطاب الرأي العام العالمي، وذلك للمقايضة بالسجناء الفلسطينيين في السجون الإسرائيلية. دخل الفلسطينيون إلى غرف نوم الرياضيين، اغتالوا بعضهم واحتجزوا آخرين رهائن، لكن الحكومة الإسرائيلية رفضت التفاوض مع المجموعة الفلسطينية التي أطلقت على نفسها اسم «أيلول الأسود» تخليداً لأحداث الأردن عام ١٩٧٠. لقد تفاوضت إسرائيل مع السلطات الألمانية وتم الاتفاق على نقل الفلسطينيين والإسرائيليين إلى قاعدة عسكرية خارج المدينة، وخلال ذلك قتل كثير من الرياضيين وبعض الخاطفين في مناوشة غامضة. لم تتوقف الألعاب الألومبية على الرغم من مقتل أحد عشر رياضياً إسرائيلياً. لم تكن أيلول الأسود منظمة سياسية بل مجموعة عسكرية عملت على مهاجمة أهداف إسرائيلية، وعقب اختتام الألعاب شكّلت الحكومة الإسرائيلية قوات خاصة استهدفت اغتيال المسؤولين عن مجزرة «ميونخ» واستطاعت تصفية أغلب قيادييها.

٤٦ ـ ما هي أهمية حرب تشرين بالنسبة إلى النزاع الفلسطيني ـ الإسرائيلي؟

شن الجيشان المصري والسوري في ٦ تشرين الأول/أكتوبر عام ١٩٧٣ هجوماً مفاجئاً ضد القوات الإسرائيلية لاستعادة الأراضي التي خسرها البلدان خلال حرب ١٩٦٧، وتمكنا من تدمير الدفاعات الإسرائيلية بين ليلة وضحاها لأسباب متعددة، أهمها، أن

إسرائيل كانت في حالة شلل افتراضية جراء احتفال الشعب اليهودي بيوم الغفران. وقد أشار Rymond Aron في مذكراته إلى أن أنور السادات قد أعد لمعركة محدودة الأهداف لأنه كان يحتاج إلى انتصار عسكري لطمس الإهانة التي تعرضت لها مصر عام ١٩٦٧، ولم يبحث عن انتقام يوازي نكسة الحرب السابقة التي سمحت لإسرائيل أن تقدم صورة في الداخل والخارج لتفوقها العسكري وعدم قدرة العرب على هزيمتها، كما جعلتها تفرض شروطها على البلدان العربية، إضافة إلى حصولها على دعم القوى الغربية.

لقد سبق وتعرضت المقاومة الفلسطينية إلى هزيمة في الأردن عام ١٩٧٠، وكانت مصر تجتاز أزمة إثر وفاة عبد الناصر، لذا فقد جاءت حرب ١٩٧٣ بوصفها هجوماً سياسياً من الرئيس أنور السادات الذي وجد أن الأسلوب العسكري هو الطريق الأنسب لممارسة الضغط على البيت الأبيض، وذلك للبحث عن حل للنزاع العربي ـ الإسرائيلي. باتت الطموحات العربية السابقة في طرد المحتل الصهيوني بعيدة المنال، ولم تعد تشكل جزءاً من الإستراتيجية الجديدة السياسية أو الاقتصادية، إذا ما أخذ في الحسبان أن السادات كان قد ابتعد عن الاتحاد السوفياتي، وشرع في التقرب من الولايات المتحدة الأمريكية، وأطلق على سياسته الجديدة اسم «الانفتاح الاقتصادي».

على الرغم من استعادة الجيش الإسرائيلي قواه إثر الصدمة التي خلفتها الضربة المفاجئة، فقد خلقت الحرب أزمة سياسية عميقة داخل إسرائيل. وفي عام ١٩٧٧، أي بعد أربع سنوات من الحرب فاز التحالف اليميني بقيادة ميناحيم بيغن القائد التاريخي لليمين المتطرف في إسرائيل بالانتخابات، وذلك لأول مرة منذ تأسيس إسرائيل، وبدأ حزب العمل مؤسس الدولة بالانحدار.

يطلق الإسرائيليون على هذه الحرب اسم «حرب يوم الغفران» لأنها اندلعت يوم الغفران، وهو يوم صيام، وانزواء بالنسبة إلى اليهود، لكن العرب يعرفونها باسم «حرب تشرين». لقد كانت آخر حرب بين الجيوش العربية والجيش الإسرائيلي. ومنذ ذلك الحين لم يعد الحديث يجري عن النزاع بين العرب والإسرائيليين، وحلّ مكانه مفهوم النزاع الفلسطيني ـ الإسرائيلي.

٤٧ ـ لماذا لم تتمكن الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفياتي من فرض اتفاقية للسلام بعد حرب ١٩٧٣؟

على الرغم من تأييد الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي قرار التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة عام ١٩٤٧، فإن الحرب الباردة أدت أيضاً إلى حدوث مواجهة بينهما في الشرق الأوسط.

أسهمت القومية العربية بقيادة جمال عبد الناصر الذي تحدى القوى الغربية العظمى في قيام تحالف إستراتيجي بين بعض البلدان العربية والكتلة السوفياتية، مع أن الاتحاد السوفياتي لم يقطع علاقاته الدبلوماسية مع إسرائيل إلا بعد احتلالها للضفة والقطاع وسيناء والجولان عام ١٩٦٧.

ونتيجة لتطور القضية الفلسطينية وتبوئها مركز الصدارة على الساحة الدولية، وفي محاولة لانتزاع الدور الريادي للولايات المتحدة، اقترح السوفيات بعد حرب ١٩٧٣ إجراء مفاوضات بين العرب وإسرائيل برعاية دولية وبإشراف القوتين العظميين، وذلك لإيجاد حل للنزاع في الشرق الأوسط. ومع أن الولايات المتحدة التي كان لها تأثير في إسرائيل قد بدأت بالتقارب مع مصر، وجدت نفسها في مواجهة البلدان العربية المنتجة للنفط، فقد قررت هذه

البلدان ممارسة الضغط على العالم الغربي باستخدام ما سمّي بسلاح النفط، وهددت بزيادة أسعاره للتأثير في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية إذا لم تقنع واشنطن إسرائيل بالانسحاب من الأراضي التي احتلتها عام ١٩٦٧. لقد زادت أسعار النفط وأطلقت التهديدات، لكن هذه الدول لم تكن على استعداد للمواجهة الدائمة مع الغرب بسبب مصالحها الخاصة.

تركزت المفاوضات بين عام ١٩٧٤ - وعام ١٩٧٥ حول إيجاد صيغة لانسحاب القوات الإسرائيلية، وكان الاتحاد السوفياتي يراهن على عقد مؤتمر دولي في جنيف بسويسرا، لكن إسرائيل لم تكن مهيّأة للانسحاب من الأراضي كلها، كما لم تكن الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل على استعداد للاعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني، إضافة إلى عدم ثقة السوفيات بقيادة فلسطينية غير مروضة، أو ليست متأتية عن القيادات الشيوعية، أو على الأقل أن تحظى بدعم الكثير من الأحزاب الشيوعية الحليفة التي تقبل بالتبعية لهم في المنطقة. سعت المفاوضات إلى تحقيق اتفاق بين البلدان العربية وإسرائيل في الوقت الذي كان يتحول فيه محور الصراع في المنطقة، وكان يقتضي إيجاد حل للقضية الفلسطينية، لكن مؤتمر جنيف الشهير لم يرَ النور.

٤٨ - لماذا قامت إسرائيل باحتلال جنوب لبنان عام ١٩٨٢؟

بدأ الغزو الإسرائيلي عملياً في الخامس من حزيران/يونيو عام ١٩٨٢، مع أن الجيش الإسرائيلي كان منذ الستينيات بخاصة بعد طرد الفلسطينيين من الأردن عام ١٩٧٠، يشن غارات على الأراضي اللبنانية والقواعد الفلسطينية بهدف اغتيال قادة منظمة التحرير.

كان للغزو أهداف عدة، أولها القضاء على القوة السياسية

كانت قبل عام ١٩٦٧، والثاني تدمير قيادتها السياسية في لبنان وإيقاف الانتفاضة في الضفة الغربية وقطاع غزة التي باتت تتبوأ مركز النزاع في المنطقة.

كان الإسرائيليون يعتبرون لبنان مصدراً لمقاومة الاحتلال، وأنه لم يكن للمقاومة علاقة بالاحتلال، الثالث هو استئصال هزة ١٩٧٣ وتداعياتها على الشعب الإسرائيلي، واستعادة الثقة المفقودة بالقوة العسكرية للجيش الإسرائيلي، وأخيراً إضعاف الجبهة الإسلامية الفلسطينية اليسارية في لبنان، وتنصيب الأقلية المسيحية المارونية اليمينية في الحكم بوصاية إسرائيلية، وتغيير موازين القوى الداخلية. كانت الحكومة الإسرائيلية قد طرحت قيام الدولة المسيحية عن طريق التدخل العسكري في الخمسينيات، وذلك استناداً إلى الوثائق التي كشف عنها رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق موشيه شاريت Moshe Sharet.

دمّر الجيش الإسرائيلي مدناً وقرى، إضافة إلى مخيمات اللاجئين في جنوب لبنان، وحاصر العاصمة بيروت لتصفية منظمة التحرير. من وجهة النظر العسكرية هزمت منظمة التحرير لأنها فقدت سيطرتها على جنوب لبنان، واضطر قادتها إلى مغادرة البلاد بعيداً عن فلسطين، إلا أنهم ظهروا أمام الوطن العربي وكأنهم الوحيدون الذين واجهوا الجيش الإسرائيلي بدون أن يستسلموا أو يهزموا.

هذا، ولم يتمكن الغزو من إيقاف الكفاح الفلسطيني في الضفة والقطاع، إذ جرى تمرد شعبي بعد خمس سنوات عرف بالانتفاضة. ومن جهة أخرى فإن طرد منظمة التحرير من لبنان قد ترك أرضاً خصبة لظهور عدو أكبر وأكثر قوة هو حزب الله.

٤٩ ـ ماذا جرى في مخيَّمي صبرا وشاتيلا في بيروت؟

قام الجيش الإسرائيلي عام ١٩٨٢ باحتلال جنوب لبنان حتى مشارف بيروت، التي كانت منقسمة آنذاك إلى قسمين نتيجة للحرب الأهلية التي كانت ماتزال مستمرة منذ عام ١٩٧٥، والتي أسفرت عن مقتل مئة ألف شخص.

كان الفلسطينيون متمركزين في مخيمات الجزء الغربي إلى جانب الأغلبية المسلمة وأحزاب اليسار في إطار تكتل سياسي. أما بيروت الشرقية المسيحية فكانت ترابط فيها قواعد الأحزاب اليمينية المسيحية التي شكلت تاريخياً النخبة الاقتصادية والسياسية، وكانت تكنّ العداء والبغضاء للفلسطينيين.

لقد تمكنت إسرائيل خلال شهر أيلول/سبتمبر من السيطرة على أجزاء المدينة كلها، بما فيها المطار الدولي والمخيمات المتعددة للاجئين الفلسطينيين، وقدمت في الفترة ما بين ١٦ ـ ١٩ من الشهر ذاته تغطية لوجستية إلى حلفائها الأكثر تطرفاً «الكتائب» كي يحتلوا مخيمات اللاجئين في صبرا وشاتيلا جنوب بيروت.

كان حزب الكتائب متعطشاً للثأر، لا سيما بعد انفجار قنبلة قبل عدة أيام أدت إلى مقتل الرئيس بشير الجميل الذي كان قد انتخب قبل شهر رئيساً للجمهورية، والذي أقام علاقات وطيدة مع إسرائيل. قام الكتائب خلال بضعة أيام وبدعم من الجيش الإسرائيلي بقتل رجال ونساء وعجزة وأطفال فلسطينيين، وحتى الآن لا توجد أرقام دقيقة حول عدد الضحايا الذين اغتيلوا، إلا أنها تقدر بين ألفين وخمسة آلاف قتيل.

أثارت مجازر صبرا وشاتيلا موجة من الاحتجاجات العارمة في

شتى أنحاء العالم ضد إسرائيل الدولة المحتلة لأنها كانت المسؤولة عمّا جرى في المدينة والمخيمات. خرج آلاف الإسرائيليين إلى الشوارع للتنديد بالمسؤولين عن الحرب، رئيس الوزراء مناحيم بيغن ووزير الدفاع آنذاك أرييل شارون، وعدّت المحكمة الإسرائيلية شارون شريكاً في المجزرة. لقد جابت صور الأجساد المذبوحة أنحاء العالم كافة، وأكد الصحفيان الإسرائيليان Zeev Shif و Ehud Lari المؤلفان لكتاب حول الحرب، أن سمعة إسرائيل قد أصيبت بأضرار كبيرة لدى الرأي العام العالمي وترافقت مع ازدياد التصريحات المعادية للسامية في أماكن مختلفة وابتعاد بعض الجاليات اليهودية عن إسرائيل، وعدت الأمم المتحدة في جلستها المنعقدة في ٢٦ كانون الأول/ ديسمبر المجزرة إبادة جماعية.

٥٠ ـ متى برز حزب الله في لبنان؟

ترجع ولادة حزب الله إلى تزامن عوامل ثلاثة: الثورة الإسلامية الإيرانية، الغزو الإسرائيلي لجنوب لبنان الذي أسفر عن عشرين ألف قتيل، وتصاعد الدور السياسي للمسلمين الشيعة المهمشين تاريخياً في بلد تتصارع فيه المجموعات الدينية والإثنية. ارتبط الحزب منذ بداياته بعلاقات دينية ـ سياسية مع إيران، قام على أسس حزبية سياسية ـ عسكرية نظراً إلى نشوئه في سياق حرب أهلية مريعة، وفي بلد يحتله الجيش الإسرائيلي.

لعب العامل الأخير دوراً جوهرياً في صعود حزب الله وقائده الأعلى السيد حسن نصر الله الذي أكد في مناسبات عدة أنه لولا الغزو الإسرائيلي لما وجد حزبه، ولأن الاحتلال قد حل مكان المجموعات المسلحة الفلسطينية.

أعطت حرب العصابات ضدالقوات الإسرائيلية في جنوب لبنان شرعية للحزب لدى أغلبية اللبنانيين، واعتاد رفيق الحريري رئيس الوزراء اللبناني الأسبق الذي اغتيل في بيروت عام ٢٠٠٥، وعلى الرغم من ابتعاده أيديولوجيا عن حزب الله، أن يقول: إن المقاومة ضد الاحتلال شرعية، ولا يمكن لأحد أن يطالب بنزع السلاح من حزب الله.

وبدون أن يتخلى عن بنيته العسكرية، شارك حزب الله عام ١٩٩٢ لأول مرة في الانتخابات البرلمانية بعد الحرب الأهلية، فاز بعدة مقاعد، وتحول إلى حزب له أهميته في السياسة اللبنانية. من الصعب تصنيف الحزب أيديولوجياً، لأنه ورغم تأثره بالمذهب الشيعي الإيراني إلا أنه يضم في صفوفه متطوعين من مجموعات قومية ويسارية (قد تتعرض للقمع في إيران لو وجدت هناك)، واستطاع أن يقيم تحالفات مع بعض التيارات المسيحية التي قاتلت ضد الفلسطينيين أثناء الحرب الأهلية. يعود نجاحه إلى عاملين رئيسيين: الأول يتمثل في وجوده داخل الأحياء الفقيرة من بيروت وجنوب لبنان، والثاني هو مقاومته الفعالة للاحتلال العسكري الإسرائيلي، وقد توّج انتصاراته عام ٢٠٠٠ بانسحاب الجيش الإسرائيلي من جنوب لبنان بعد ١٨ عاماً من الاحتلال.

بدا حزب الله أمام الوطن العربي والعالم الإسلامي بوصفه أول جيش قادر على طرد الإسرائيليين من أراض محتلة، وهذا ما لم تتمكن من تحقيقه الجيوش المصرية والسورية معاً، ولا الفصائل الفلسطينية، لقد ثبتت كفاءته عام ٢٠٠٦، فبعد ثلاثة وثلاثين يوماً من المقاومة الباسلة، أرغم الجيش الإسرائيلي «الذي لا يقهر» على الانسحاب من لبنان بدون أن يحقق أياً من أهدافه.

٥١ ـ لماذا اندلع التمرد الفلسطيني الذي عرف باسم الانتفاضة عام ١٩٨٧؟

في الثامن من كانون الأول/ ديسمبر عام ١٩٨٧ دهست شاحنة إسرائيلية بدون عمد ـ بحسب الإسرائليين ـ عدداً من الفلسطينيين في قطاع غزة، أسفر الحادث عن مقتل أربعة منهم، عدّ الفلسطينيون الحادث متعمداً مّما أدى إلى نشوب أول تمرد في الأراضي الفلسطينية المحتلة منذ عام ١٩٦٧.

بعد عشرين عاماً من الاحتلال نشأت مفارقة معقدة، فمن جهة لم يعد بإمكان إسرائيل أن تتخذ قراراً بضم الضفة والقطاع مع إضفاء الصبغة الشرعية، كما لم تكن على استعداد للتخلي عن أي جزء من المنطقتين، ولا الاعتراف بمنظمة التحرير الممثل الشرعي الوحيد للفلسطينيين، أو القبول بقيام دولة فلسطينية. ومن جهة أخرى لم يكن لدى الفلسطينيين القوة الكافية لإرغام إسرائيل على الانسحاب. وفي هذا السياق اندلع التمرد الفلسطيني الذي عرف باسم «الانتفاضة» أو حرب الحجارة، لأنه كان تمرداً مدنياً واجه المدرعات بالحجارة.

أسهمت الانتفاضة في نشوء قيادة فلسطينية داخلية تحت الاحتلال، وهي مختلفة عن القيادة الموجودة في الخارج (منظمة التحرير) لكنها غير معارضة وإنما مكملة، كما أسفرت عن ظهور تشكيل فلسطيني جديد اسمه حركة المقاومة الإسلامية «حماس». لقد نشأ القادة الجدد في أجواء المعاناة اليومية نتيجة للاحتلال الذي زج واحداً من كل خمسة من الفلسطينيين في السجون الإسرائيلية. لم يكن هدف الانتفاضة طرد المحتل إذا ما أخذ في الحسبان أن ميزان القوى لم يكن يسمح بذلك، وإنما كسب التأييد العالمي لنضال الشعب الفلسطيني.

حاول الفلسطينيون أن يثبتوا للإسرائيلين أن استمرار الاحتلال سيلحق الضرر بمصالح المحتل، ووزعوا منشورات باللغة العبرية موجهة إلى الجنود الإسرائيليين، تقول: إنهم ليسوا إرهابيين، وهم يتظاهرون للتعبير عن حقهم بوضع حد نهائي للاحتلال الأجنبي، وكانت تقول أيضاً «النضال غير موجّه ضد شعبكم وإنما ضد اعتداءات حكامكم».

كانت كاميرات التليفزيون لأول مرة منذ ١٩٤٨تنقل على الهواء أن من يستخدم العنف هم الإسرائيليون الذين كانوا يقدمون أنفسهم ضحايا العنف. لقد شغل الإسرائيليون آنذاك دور القاتل، على الرغم من محاولات إسرائيل إظهار الانتفاضة بوصفها جزءاً من المؤامرة الإرهابية التي تحيكها منظمة التحرير، إلا أنها كانت أنموذجاً للمقاومة السلمية. وكانت صور النساء والأطفال وهم يرمون الدبابات الإسرائيلية بالحجارة في معركة غير متكافئة تجوب العالم تمنح الشرعية لمصطلح «الانتفاضة».

٥٢ ـ متى ظهرت حركة حماس في فلسطين؟

برزت حركة المقاومة الإسلامية حماس عام ١٩٨٧ بوصفها جزءاً من الانتفاضة. ينتمي عدد من زعمائها إلى الجناح الفلسطيني لمنظمة الإخوان المسلمين المصرية التي يعود تأسيسها إلى عام ١٩٢٩. بقي هؤلاء الزعماء فترة طويلة على هامش الكفاح ضد الاحتلال الإسرائيلي، وكانت الحكومة الإسرائيلية تدعم حركة حماس سياسياً لمواجهة منظمة التحرير الفلسطينية، ولهذا السبب رخصت إسرائيل مئات المراكز لنشر اللاهوت بدون أن تأخذ في الحسبان الثورة الإسلامية الإيرانية عام ١٩٧٩ وتأثيرها في جميع أنحاء الشرق

الأوسط. وعلى الرغم من كون الإيرانيين شيعة والفلسطينيين سنة، فقد كان للثورة الإيرانية تأثير مباشر في فلسطين عبر تسييس الخطاب الفقهي مقابل تراجع نفوذ وقوة منظمة التحرير بعد طرد قياداتها من لبنان عام ١٩٨٢ وتخليها عن الكفاح المسلح واختيارها أسلوب المفاوضات سبيلاً للحصول على تنازلات إسرائيلية.

اعتاد الشيخ أحمد ياسين مؤسس حركة حماس الذي اغتالته إسرائيل عام ٢٠٠٤ أن يقول: «عندما تغلق الأبواب كافة فإن الله يفتح فوهة تصريف». استطاعت حماس أن توفق بين الوطنية بأخلاقية شفافة والعمل الاجتماعي وطرحت أن النعمة الإلهية لا تتحقق بتحرير الوطن فقط وإنما بخلاص الأرواح.

شكلت حماس جناحاً مسلحاً سمته «كتائب عزالدين القسّام» تكريماً لذاك القروي السوري الذي رفع السلاح خلال عقد الثلاثينيات ضد الاحتلال البريطاني والاستعمار الصهيوني. وعلى الرغم من تأكيدات الحكومة الإسرائيلية حول وجود علاقة وطيدة بين حماس وإيران، وأن عملياتها الاستشهادية يخطط لها في طهران، فإن برنامج حماس يخلو من أية إشارة إلى الثورة الإسلامية الإيرانية التي كانت مصدر إلهام لنضالها. لقد برزت حماس لتقاتل عدواً محدداً: الاحتلال العسكري للضفة والقطاع منذ ١٩٦٧، وتبدو بالنسبة إلى الفلسطينيين خياراً سياسياً ـ دينياً مقابل الوطنية العلمانية لمنظمة التحرير.

٥٣ ـ هل هناك مؤشرات على معاداة السامية في البرنامج السياسي لحماس؟

في شهر آب/أغسطس ١٩٨٧ نشرت حماس أول وثيقة لها، تطرح فيها أهدافها السياسية والدينية باستشهادات مستمدة من القرآن

«الكتاب المقدس للمسلمين». تقول الوثيقة بوضوح: إن حماس قد برزت نتيجة لفشل الحركات العلمانية في تحدٍّ واضح للهيمنة التاريخية لمنظمة التحرير. فبينما كانت منظمة التحرير تتجه نحو المفاوضات الدبلوماسية والاعتراف بدولة إسرائيل، جاءت حماس لتعارض أيَّ حل يتضمن تقسيم فلسطين.

كانت منظمة التحرير تطرح الكفاح المسلح طريقاً إلى التحرر الوطني، مستندة إلى حق الشعوب في تقرير مصيرها، وذلك بالتوافق مع الأفكار المعادية للاستعمار، أما حماس فقد تأسست مستندة إلى أسس دينية تعد فيها فلسطين «أرضاً إسلامية»، وأنه لا يجوز لأية دولة عربية أو ملك أو قائد أو منظمة التنازل عن شبر من أرض فلسطين، وفقاً لما جاء في الوثيقة.

وبخلاف منظمة التحرير التي كانت تميز دوماً بين الصهيونية واليهود بصورة عامة، تشير عدة فصول من الوثيقة إلى النضال ضد الاحتلال اليهودي واليهود، وفيها مزيج من الحجج المعادية للصهيونية وأخرى لـ «السامية».

وتشير أيضاً إلى أن «العدو» كان وراء قيام الثورة الفرنسية والحرب العالمية الأولى ونشوء الأمم المتحدة للتحكم بالعالم. وفي تحليلها للصهيونية تبين أن الحركة الصهيونية قد حظيت بدعم القوى العظمى، وأنها جزء من مؤامرة كبيرة لاحتلال الأراضي العربية. وعلى غرار ما يجري مع الكثيرمن المنظمات المعادية للسامية، فعندما تذكر «المؤامرة اليهودية» تشير إلى المنشور الشهير لروسيا القيصرية المعادي للسامية والمعروف باسم «برتوكولات حكماء صهيون»، وذلك لإضفاء الصبغة الحقيقية لذريعة المؤامرة.

تتضمن البرتوكولات وثيقة حول وجود مؤامرة يهودية منذ انعقاد أول مؤتمر صهيوني دولي بهدف السيطرة على الكرة الأرضية. تؤكد المادة/ ٣٢/ من ميثاق حماس أن «المخطط الصهيوني ليس له حدود»، وقد تم رسمه في بروتوكولات حكماء صهيون مستشهدة بوثيقة مزورة معادية للسامية.

بعد تزايد النفوذ الصهيوني في فلسطين، تم توزيع الوثيقة في العديد من البلدان العربية لشرح خطورة الأطماع اليهودية في فلسطين، وعكفت حماس على ذكرها عام ١٩٨٨ وكأنها حقيقية.

٥٤ ـ متى اعترف الفلسطينيون بدولة إسرائيل؟

نظراً إلى الدور الريادي الذي لعبته منظمة التحرير في تمثيل الفلسطينيين، يمكن القول إن نهج المنظمة قد رسم التوجه السياسي الفلسطيني، إلى أن برزت حماس على الساحة عام ١٩٨٨. وباستثناء الأراضي الفلسطينية، فإن أغلبية الفلسطينيين، وبالأخص أولئك الذين يعيشون في مخيمات، ما زالت تحت لواء منظمة التحرير. وهكذا فإن التطور السياسي لمنظمة التحرير هو الذي حدد معالم القضية الفلسطينية.

خلال الأيام الأولى من قيام دولة إسرائيل، اعتقد الفلسطينيون أنها ستكون سريعة الزوال، وأنهم سيعودون قريباً إلى ديارهم، لذا لم يفكر أحد قط أن يعترف بها، وشنت الجيوش العربية ثلاث حروب لتدميرها، إلا أنها أخفقت في تحقيق هدفها.

سلكت منظمة التحرير طريقاً مستقلاً، واعتقدت أن الكفاح المسلح سيحقق للشعب الفلسطيني حلم العودة، مما جعلها تعيد

النظر في طروحاتها حول هدفها الأساسي المتمثل في تحرير فلسطين.

عقب مناقشات ومداولات معمقة، استنتج بعض الزعماء الفلسطينيين أن هذه الدولة التي تحظى بدعم القوى العظمى قد أنشئت لتستمر هناك، وعلى الرغم من أنها أقيمت على أسس تدمير الشعب الفلسطيني، فلها الحق في العيش والاستمرار هناك وفقاً لمبادئ حق الشعوب في تقرير المصير.

في تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٩٨٨ عقد الفلسطينيون في الجزائر اجتماعاً للمجلس الوطني الفلسطيني اتفقوا خلاله على إنشاء دولة فلسطينية، وتم التشديد خلال الاجتماع على ضرورة التوصل إلى اتفاق إقليمي بالطرق السلمية وفقاً لميثاق الأمم المتحدة وقراراتها. وطالب البيان الذي نشر في وسائل الإعلام عقب الاجتماع بانسحاب القوات الإسرائيلية من الأراضي التي احتلت عام ١٩٦٧، ودعا إلى عقد مؤتمر دولي للسلام في إطار القرار/ ٢٤٢/ ، وعدّ ذلك تحولاً تاريخياً في الموقف الفلسطيني لأنه كان اعترافاً ضمنياً بدولة إسرائيل. وبعد ذلك بفترة قصيرة بدأت مفاوضات مباشرة بين الفلسطينيين والإسرائيليين.

٥٥ ـ ماذا أقرّت اتفاقيات أوسلو عام ١٩٩٣؟

إن سقوط جدار برلين والتغيرات التي طرأت داخل الاتحاد السوفياتي والحرب ضد العراق إثر قيام صدام حسين باحتلال الكويت، قد سمح للرئيس بوش أن يرسم في آب/أغسطس عام ١٩٩٠ ما أسماه بالنظام الدولي الجديد، وقد ولّد انهيار الكتلة السوفياتية آمالاً بالتوصل إلى اتفاق للسلام في الشرق الأوسط برعاية الولايات المتحدة الأمريكية، لا سيما أن منظمة التحرير قد خسرت

حليفها السياسي الرئيسي، لكن ذلك كان يتطلب اعتراف إسرائيل بمنظمة التحرير العدو اللدود لها.

كان الجميع يشير إلى وجود مأزق، فلم يكن بمقدور الفلسطينيين تدمير دولة إسرائيل وهي بدورها لم تكن قادرة على الاستمرار في احتلال الضفة والقطاع حيث الغليان الشعبي الفلسطيني مستمر منذ أن اندلعت الانتفاضة عام ١٩٨٧.

أجرى حزب العمل الإسرائيلي ومنظمة التحرير مفاوضات سرية طيلة أشهر في أوسلو تحت كنف الحكومة النرويجية، ومن هنا جاء اسم اتفاقيات أسلو، وإثر التوصل إلى اتفاق انتقلوا إلى البيت الأبيض للحصول على ضمانة أمريكية. بعث عرفات برسالة إلى رئيس الوزراء الإسرائيلي اسحاق رابين أكد فيها اعتراف منظمة التحرير الفلسطينية علناً بحق دولة إسرائيل بالوجود والعيش بسلام مقابل اعتراف رابين بمنظمة التحرير ممثلاً للشعب الفلسطيني.

عدّ الاتفاق انعطافاً تاريخياً في العلاقة بين الشعبين، فبعد عقود من التشهير المتبادل اعترف كل طرف بالآخر. دشنت صورة المصافحة بين رابين وعرفات مع بيل كلينتون وسطهما في الثالث عشر من أيلول/سبتمبر عام ١٩٩٣ مرحلة جديدة من العلاقات الثنائية، ونال كل منهما إلى جانب شمعون بيريز جائزة نوبل للسلام عام ١٩٩٤. وقد مثل الاتفاق إطاراً عاماً لحل النزاع بين الإسرائيليين والفلسطينيين.

٥٦ ـ ما هي طبيعة المستوطنات التي بنتها إسرائيل في الضفة والقطاع؟

نجم عن الانتصار العسكري الإسرائيلي في حرب عام ١٩٦٧

خلال ستة أيام فقط، نشوء شعور بالتفوق القومي داخل المجتمع الإسرائيلي إذ قامت إسرائيل إثرها بضم القدس الشرقية رغم المعارضة الدولية. وعلى الرغم من تأكيد الخطاب الرسمي أن احتلال الضفة والقطاع سيكون مؤقتاً، فإن الأحزاب اليمينية والدينية المتطرفة كانت تقول: إن هذه الأراضي قد حرّرت من العرب. لقد قامت إسرائيل بين تموز/يوليو ١٩٦٧ وتموز/يوليو ١٩٦٨ ببناء أربع عشرة مستوطنة، وبدأ الإسرائيليون تدريجياً باحتلال منازل في أهم المدن وإنشاء مستوطنات جديدة في الأراضي الفلسطينية. وتطبيقاً للمبادئ الصهيونية شرعوا يستعمرون الأراضي التي احتلت خلال الحرب. وبغضّ النظر عن المطالبة التاريخية اللاهوتية، كان الهدف الإستراتيجي مماثلاً لأهداف الثلاثينيات: احتلال أكبر قدر ممكن من الأرض كي يتمكنوا ـ عندما يرغمون على التفاوض ـ من الادعاء أنها أراضيهم وتفادي إعادتها. كان المستوطنون الجدد يطبقون أسلوباً سهلاً برفع علم في مكان ما، ثم يبنون المساكن ويطلبون من الجيش أن يوفر لهم الحماية لئلا يتسنى للفلسطينيين إزاحتهم. بدأت بعض المستوطنات بعشرة أفراد لتصبح اليوم مدناً حقيقية يسكن فيها آلاف الأشخاص مثل معالي أدومين Maale Adumin. في عام ١٩٦٨ وبينما كانت المفاوضات تجري مع الفلسطينيين قال لهم شارون وزير الخارجية آنذاك «تحركوا» واستولوا على الهضاب وتوسعوا في الأراضي، فكل ما تستولون عليه سيصبح لنا، وما لا تسيطرون عليه سيكون لهم.

هذا ما جرى على الأرض. في عام ١٩٦٧ كان يقطن الضفة والقطاع ١٦٦ ألف مستوطن، وقد تجاوز عددهم ٣٠٠ ألف، عام ٢٠٠٩. لقد أعلن العديد من كبار المسؤولين الأمريكيين أن

المستوطنات ستتحول إلى عائق أساسي لتحقيق السلام، وعدّتها قرارات الأمم المتحدة غير شرعية، ومع ذلك قامت الحكومات الإسرائيلية المتتالية بتوسيعها منذ عام ١٩٦٨، وتطلق هذه الحكومات بين حين وآخر وعوداً بتجميدها، إلا أن ذلك لم يحدث البتة.

وفي الوقت الراهن يبلغ عدد المستوطنين في الضفة والقطاع نصف مليون، بمن فيهم الذين يقطنون في أحياء القدس الشرقية، ويسيطرون على ٤٠ ٪ من أراضي الضفة، ويمتلكون بنية تحتية خاصة تربطهم مع بقية الأراضي الإسرائيلية، وتم تشييد العديد من الأتوسترادات والأنفاق ـ لا يجوز للفلسطينيين استخدامها ـ للوصل بين المستوطنات والأرضي الواقعة على الجانب الآخر من الخط الأخضر القديم.

٥٧ ـ ماذا يعني الانتماء إلى اليمين أو اليسار في إسرائيل؟

كانت مفهومات اليمين واليسار في إسرائيل حتى عام ١٩٦٧ مماثلة لتلك المستخدمة في أي مكان من العالم، فكان اليسار يضم الأحزاب الاشتراكية والشيوعية بمختلف تياراتها مقابل اليمين الذي يمثل المدافعين عن الرأسمالية، وهكذا كانت الفروق حول القضايا الاجتماعية والاقتصادية التقليدية.

أسفرت حرب ١٩٦٧ عن تغيير المعادلة، فأصبح احتلال الضفة والقطاع يشكل القضية الأساسية لخلافات المجتمع الإسرائيلي لتتجاوز الحدود الأيديولوجية السابقة، فالذين عارضوا الاحتلال وبناء المستوطنات اعتقدوا أن على الجيش الإسرائيلي أن ينسحب من الأراضي التي احتلها خلال الحرب فباتوا يمثلون اليسار. أما الذين يشجعون الاستمرار في بناء المستوطنات ويدعمون فكرة عدم إعادة

الأراضي المحتلة بوصفها جزءاً من إسرائيل فبات يطلق عليهم اليمين. وقد أكد اليسار دوماً على أهمية الحوار مع منظمة التحرير، بينما رفض اليمين خلال فترة طويلة بذريعة أنها منظمة إرهابية. بدأ الطرفان يعززان مواقفهما مع مرور الزمن واستمرار الاحتلال.

أخذ اليسار يشدد على ضرورة التوصل إلى السلام مع منظمة التحرير ورفع شعار «الأرض مقابل السلام» بمعنى إعادة الأرض المحتلة كشرط لا غنى عنه لأية مفاوضات. إن غالبية اليسار تساند إعادة جميع الأراضي المحتلة بما فيها القدس الشرقية، أما اليمين فقد رفع شعار «الأمن والسلام» ذا المعنى المتناقض، ويقول: إن على دولة إسرائيل أن تعزز قدراتها العسكرية لأن القوة هي الوسيلة الوحيدة التي ترغم العرب على التفاوض من أجل السلام. إن أكثرية اليمين ترى أنه بالإمكان إعادة بعض الأراضي المحتلة، لكنها تعارض بشدة التفاوض على إعادة القدس الشرقية. التياران يتحدثان عن دولة فلسطينية، لكن بصورة مختلفة.

٥٨ ـ لماذا اغتيل رئيس الوزراء إسحاق رابين عام ١٩٩٥؟

لقد تركت اتفاقيات أوسلو المبرمة عام ١٩٩٣ قضايا كثيرة عالقة للتفاوض عليها وحلها فيما بعد. وعلى الرغم من وجود أكثرية تساندها من الطرفين، لكن جزءاً هاماً من الشعب الإسرائيلي عدّها عملاً خيانياً لأنها تضمنت الانسحاب من الضفة والقطاع. فخلال ما يقارب ثلاثين عاماً (١٩٦٧ ـ ١٩٩٥) تعلم الإسرائيليون أن هذه الأراضي «جزء لا يتجزأ» من أرض إسرائيل، كما كان يقول أحد الشعارات الشعبية داخل صفوف اليمين الإسرائيلي. وكانت الضفة الغربية قد تحولت في اللغة اليومية إلى يهودا والسامرة، وأزيل الخط

الأخضر من الخرائط الرسمية كلها. لقد نُعت رابين بالخائن نتيجة لتوقيعه اتفاقية سلام مع الفلسطينيين. وكان الكثير من الحاخامات قد أعربوا علناً أنه من الواجب رفض الأوامر بإخلاء أية مستوطنة من أرض إسرائيل، وذلك في تحدٍّ سافر للسلطة السياسية، وأنه لا يجوز «تسليم مناطق لغير اليهود». وخلال الأشهر السابقة لاغتياله أجرت الجمعيات الدينية اليهودية في إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية نقاشات ساخنة للتأكد من أن أفعال رابين كانت تصنف ضمن المقولات الدينية القديمة التي تسوغ اغتياله. وفضلاً عن ذلك فقد ألصقت آلاف الصور لرابين وهو يرتدي الكوفية التقليدية التي كان يستعملها عرفات. وفي المظاهرات التي كانت تنظمها الأحزاب اليمينية والدينية المتطرفة احتجاجاً على اتفاقيات السلام، كانت توزع صور رابين مرتدياً الزي النازي، بدون أن يتخذ زعماؤها، بخاصة بنيامين نيتنياهو، أيّ إجراء يحول دون ذلك.

لقد هُيِّئت الأجواء لاغتياله، وفي الرابع من تشرين الثاني/ نوفمبر عام ١٩٩٥ تلقى إيغال أمير أحد الناشطين في اليمين الديني المتطرف مباركة أحد الحاخامات، وقام باغتياله. وقد كشفت استطلاعات الرأي التي أجريت عقب الاغتيال أن ٣٠ ٪ من الشبيبة الإسرائيلية اعتبروا إيغال أمير بطلاً قومياً.

٥٩ ـ ما هي السلطة الوطنية الفلسطينية؟

نشأت السلطة الوطنية الفلسطينية إثر التوقيع على اتفاقيات أوسلو عام ١٩٩٣. وبما أن تطبيق الاتفاقيات كان سيتم على مراحل، فالسؤال الذي كان يطرح نفسه هو: من سيتولى مسؤولية الأراضي التي ستنسحب منها إسرائيل. تم التوقيع في الرابع من

أيار/مايو ١٩٩٤ على اتفاقية عرفت باسم «غزة وأريحا أولاً»، تضمنت الانسحاب من غزة والمدينة التاريخية الصغيرة «أريحا» حيث يعيش عشرون ألف شخص ليصبحوا تحت السيطرة الفلسطينية. وتفادياً لنشوء فراغ دستوري إذا ما أخذ في الحسبان أن قيام الدولة الفلسطينية لم يكن وشيكاً، فقد تولت السلطة الوطنية إدارة المدينة وافتتحت فيها جلساتها في شهر تموز/يوليو عام ١٩٩٤. وللمرة الأولى أحس الشعب الفلسطيني ببريق الاستقلال وقدوم الحكم الذاتي في أرضه، وسمحت إسرائيل بعودة الكثير من القادة التاريخيين لمنظمة التحرير الفلسطينية بمن فيهم ياسر عرفات.

انتخبت السلطة ممثليها الأوائل عام ١٩٩٦ بالدعوة إلى انتخابات برلمانية ورئاسية عام ١٩٩٦، وفاز فيها ياسر عرفات بأغلبية ساحقة إذ حصل على ٨٨ ٪ من الأصوات.

وكلما انسحبت إسرائيل من بعض الأراضي كانت السلطة تتولى إدارتها، وتبسط سيطرتها على الجزء الأكبر من المدن الفلسطينية وتدير شؤونها البلدية. حاولت أن تقوم بدور الحكومة عبر وضع الأسس لإنشاء الدولة الفلسطينية، لكن السلطة الوطنية لم يكن لها وظائف الحكومة لعدم وجود الدولة الفلسطينية، لأن الاحتلال ما زال قائماً. وهكذا لم تكن تشرف على الحدود، كما لم يكن لديها عملة وطنية، ومنظمة التحرير هي التي كانت تجري المفاوضات مع إسرائيل.

إن إحدى أهم المشاكل التي واجهتها السلطة منذ بداياتها تمثلت في الافتقار إلى التواصل على الأرض بين الضفة والقطاع بسبب انفصالهما جغرافياً، حيث لا توجد طرق تربط بينهما، كما كان الحال بالنسبة إلى مدينة برلين الغربية وبقية ألمانيا الاتحادية خلال

الحرب الباردة، فكانت عبارة عن معقل داخل جمهورية ألمانيا الشرقية. فالضفة موجودة في جهة وقطاع غزة في جهة أخرى، مع أنه بالإمكان الربط بينهما عبر سكّة حديدية طولها خمسون كم. ومن أجل التنقل بين المنطقتين يجب على الفلسطينيين، بمن فيهم المسؤولون في السلطة أن يطلبوا موافقة من السلطات الإسرائيلية. وعلى الرغم من أن عرفات كان رئيساً للسلطة فقد تمت محاصرته في مقر إقامته بمدينة رام الله طوال ثلاث سنوات، وكان الجيش الإسرائيلي يحظر عليه الخروج منها، وأخيراً تم دفنه هناك عام ٢٠٠٤.

٦٠ ـ من يحكم السلطة الوطنية الفلسطينية؟

كانت منظمة التحرير الفلسطينية، التي وقّعت اتفاقيات السلام مع إسرائيل عام ١٩٩٣، تسيطر على السلطة الوطنية في بداية نشوئها، وقد فازت حركة فتح بقيادة عرفات في الانتخابات الأولى التي أجريت عام ١٩٩٦ بأغلبية برلمانية ساحقة، وقاطعتها حركة المقاومة الإسلامية «حماس» بحجة أنه لا يمكن إجراء انتخابات حرة في ظل الاحتلال الإسرائيلي، كما كانت قد رفضت اتفاقيات السلام، لكن دعوتها للمقاطعة لم تكلل بالنجاح إذ شارك الشعب الفلسطيني فيها بصورة جماهيرية.

بقي عرفات رئيساً للسلطة إلى أن وافته المنية في الحادي عشر من تشرين الثاني/ نوفمبر عام ٢٠٠٤، لكن سلطته كانت محدودة جداً جرّاء الحصار الذي فرضه عليه الإسرائيليون والأمريكيون في مدينة رام الله، وذلك لتهميش دوره. وقد جرت انتخابات رئاسية جديدة عام ٢٠٠٥ بمشاركة مرشحين عدة باستثناء حركة حماس، وفاز بالانتخابات مرشح فتح محمود عباس بنسبة ٦٣ ٪، وهوالمعروف بين الفلسطينيين

باسم «أبو مازن»، وكان آنذاك يشغل منصب رئيس الوزراء.

وفي كانون الثاني/ يناير عام ٢٠٠٦ أجريت انتخابات برلمانية جديدة بمشاركة حركة المقاومة الإسلامية حماس التي رفعت سابقاً راية الكفاح المسلح ضد إسرائيل، وقد قررت المشاركة فيها، على الرغم من أن ظروف الاحتلال لم تتغير، إلا أن تفكير الشعب الفلسطيني شهد تغيراً جذرياً، فالاستقلال الذي وعدت به منظمة التحرير لم يتحقق، واستمرت منظمة التحرير بقيادة الزعماء التقليديين الذين فقدوا مصداقيتهم نتيجة تورطهم في فضائح فساد متعددة، وهذا ما أثر سلباً في السلطة المعنوية لأولئك الذين أسسوا المقاومة الفلسطينية، واستخدموا السلاح في الأردن ولبنان، وباتوا أثرياء لا يعرفون كيف يتصرفون بالأموال التي تديرها السلطة الفلسطينية، وذلك في الوقت ذاته كانت فيه غالبية الشعب الفلسطيني غارقة في الفقر. وقد فاجأت حماس الجميع إذ فازت في الانتخابات، وبصفتها تمثل الأغلبية في البرلمان انتخب قائدها إسماعيل هنية رئيساً للوزراء، إلا أن قيادتها للسلطة استمرت أقل من عام واحد بسبب نشوب حرب أهلية بين فتح وحماس.

٦١ ـ هل يمكن المقارنة بين تعامل الإسرائيليين مع الفلسطينيين وتعامل النازيين مع اليهود؟

لقد طرأ خلال الفترة الأخيرة نوع من الإجحاف في استخدام نعت «نازي» لوصف حالة قمعية معينة. عادة ما يوجه هذا النعت إلى الأوروبيين والأمريكيين لأغراض دعائية بغية إثارة الرأي العام، لا سيما أن هؤلاء هم أكثر من يشيرون إلى الأحداث التي جرت خلال الفترة النازية. وبغض النظر عن التأثير السياسي والإعلامي

لهذه المقارنة، فإنها ليست صحيحة من الناحية النظرية لأن الحالتين مختلفتان كلياً، ولا يمكن المقارنة بينهما. تجلى هدف النازيين في إبادة جميع اليهود في أوروبا، إلا أن هدف الحركة الصهيونية - بحسب زعم الإسرائيليين - يكمن في إبعاد الفلسطينيين من أرضهم وليس إبادتهم.

غالباً ما ينعت الفلسطينيون سياسة إسرائيل وممارساتها بأنها نازية، لأن بناء جدار الفصل الذي يطوق المدن الفلسطينية، والإبعاد الجماعي، والزجّ في السجون والتعذيب، وشتى الممارسات القمعية التي ترتكبها إسرائيل تشبه نسبياً ممارسات الأنظمة الدكتاتورية. لكن هذه الممارسات لا تجعل الإسرائيليين نازيين. وإذا ألح أحد على البحث عن نقاط مشتركة للمقارنة، يمكن القول: إن الممارسات الإسرائيلية في الأراضي الفلسطينية المحتلة تشبه إلى حد بعيد السياسات الاستعمارية للبريطانيين والفرنسيين والإسبان والبلجيك تجاه السكان الأصليين في المستعمرات التي استولوا عليها.

الجدير بالذكر أن السبّاقين في طرح هذه المقارنة لم يكونوا من الفلسطينيين، وإنما بعض الزعماء الصهاينة قبل فترة طويلة من تأسيس منظمة التحرير أو احتلال الضفة والقطاع.

بعد وهلة وجيزة من قيام دولة إسرائيل، أعلن وزير الزراعة Aharon Tsisling خلال اجتماع وزاري «يجب أن أقول أيضاً: إن اليهود قد ارتكبوا فظائع تقارن بأفعال النازيين»، وتابع قائلاً: «يجب أن نظهر أمام العالم وكأن لا شيء من ذلك قد حصل». اعتاد دافيد بن غوريون، الذي شغل منصب رئيس الوزراء التأكيد أن الزعيم التاريخي لليمين الإسرائيلي «ميناحيم بيغين» - الذي أصبح فيما بعد

رئيساً للوزراء ـ كان يرغب في تطبيق سياسة مع العرب تماثل سياسة النازيين. وابتدع الفيلسوف الإسرائيلي الأصولي Leshayahu Leibowitz خلال عقد الثمانينيات تعريف «اليهودي النازي» لوصف أفعال الجنود الإسرائيليين. وفي التسعينيات قام زعماء اليمين الإسرائيلي مرتدين الزي النازي بزيارة اسحاق رابين لتوجيه اللعنة إليه وتعبيراً عن مقتهم له. وعلى الرغم من أن هذه المقارنة تثير حفيظة الكثير من الإسرائيليين فإن وسائل الإعلام الإسرائيلية تطرحها بين حين وآخر.

٦٢ ـ هل يمكن الحديث عن سياسة تمييز عرقي في الأراضي التي تحتلها إسرائيل؟

أُطلقت كلمة Apartheid «أبارثيد» على نظام التفرقة العنصرية في جنوب أفريقيا، إذ كانت أقلية بيضاء تطبق إجراءات قمعية ضد الأغلبية السوداء كي يتسنى لها الهيمنة السياسية والاقتصادية والجغرافية إلى ما لا نهاية. وفي الوقت الراهن يؤكد الكثيرون أن الممارسات الإسرائيلية في الأراضي التي احتلتها عام ١٩٦٧ تتطابق مع جميع سمات الأبارثيد، ولو أنها لا تستند إلى أساس عنصري (بيض وسود)، بل إثني قومي (يهود وعرب).

مما لا شك فيه أن الكثير من الإجراءات التي تطبقها إسرائيل تشبه ممارسات الأبارثيد إذا ما أخذ في الحسبان أن مئتي مستوطنة يهودية بالكاد تشغل ١٠ ٪ من مساحة الضفة الغربية تسيطر على ٤٠ ٪ من أراضيها ومصادرها الطبيعية وفيها مدن خاصة باليهود، كما توجد طرق يحظر استخدامها من الفلسطينيين. إن تجزئة الأراضي الفلسطينية تحتم على الفلسطينيين ممن يرغبون بالتنقل أن يطلبوا ترخيصاً من الجنود الإسرائيليين الذين يسيطرون على أكثر من مئة

موقع، وذلك لمراقبة تحركاتهم، ويقررون من سيسمح له بالتنقل داخل الأراضي الفلسطينية أو الدخول إلى المناطق التي تسيطر عليها إسرائيل. إن الجدار الذي بدأ بناؤه عام ٢٠٠٢ بارتفاع ثمانية أمتار يطوق المدن الفلسطينية ويحولها إلى مراكز غيتو حقيقي، ويتطلب الدخول إليها أو الخروج منها ترخيصاً من الجنود الإسرائيليين.

وبغضّ النظر عن النقاش بشأن هذا الموضوع، أو إثارة سخط الإسرائيليين، فإنه نقاش قائم في إسرائيل. لقد أكد وزيران سابقان للتربية Iosi Sarid و Shulamit Aloni علناً وجود سياسة الأبارثيد، ونشر الثاني مقالاً عام ٢٠٠٧ تحت عنوان «نعم هناك أبارثيد في إسرائيل»، جاء فيه «لقد قام الجيش الإسرائيلي بتحويل كل بلدة عربية إلى مخيم اعتقال محاصر ومطوق»، وقد تطابقت كلماته مع أقوال الرئيس الأمريكي الأسبق جيمي كارتر الذي نشر كتاب «السلام بدلاً من الأبارثيد». إن عدداً من الوزراء في حكومة جنوب أفريقيا ممن كانوا مناضلين سابقين ضد الأبارثيد قالوا في أكثر من مناسبة: إن السياسة الإسرائيلية تجاه الفلسطينيين أسوأ من سياسة الأبارثيد ضد السود في جنوب أفريقيا.

ليس بوسع الفروق وأوجه التشابه هذه إلا أن تكشف التأثيرات السلبية للاحتلال الإسرائيلي في السكان الفلسطينيين.

٦٣ ـ هل صحيح أن الإسرائيليين عرضوا على عرفات دولة فلسطينية عام ٢٠٠٠ ولم يوافق؟

بدأت اتفاقيات أوسلو التي وقعت عام ١٩٩٣ تشهد فتوراً لأسباب عدة، أهمها اغتيال رئيس الوزراء الإسرائيلي إسحاق رابين، وتوسيع المستوطنات، والتفجيرات التي كانت تنفذها حماس في

الأراضي الإسرائيلية، ووصول اليمين الإسرائيلي إلى السلطة عام ١٩٩٦ الذي قام بتجميد المفاوضات مع الفلسطينيين. هذا وقد عاد حزب العمل بقيادة إيهود باراك إلى السلطة عام ١٩٩٩، واقترح استئناف المفاوضات مع الفلسطينين. التقى باراك عرفات إلا أنه أوضح منذ البداية أن القدس لن تقسم مجدداً وفقاً لمطالب الفلسطينيين، وأنه لن يتوقف عن بناء المستوطنات، وفي شهر تموز/ يوليو ٢٠٠٠ أجريت محاولة أخرى للتوصل إلى اتفاق في كامب ديفيد بوساطة مباشرة من الرئيس الأمريكي بيل كلينتون. نوقشت هناك القضايا الأربع التالية: إمكانية قيام دولة فلسطينية، مستقبل القدس، تفكيك المستوطنات أو التوقف عن بنائها، وكيفية حل قضية اللاجئين الفلسطينيين.

استطاع باراك أن يحقق تقدماً في بعض القضايا تجاوزت تلك التي طرحها رابين عام ١٩٩٣، وتضمنت انسحاباً واسعاً من الضفة والقطاع بدون تفكيك المستوطنات كلها أو السماح بعودة اللاجئين، وتم تجزئة الأراضي التي ستقام عليها الدولة بطريقة تجعلها غير قابلة للحياة. وفيما يتعلق بالقدس، اقترح على عرفات أن تقوم منظمة التحرير بالإشراف فقط على بعض الأحياء في الجزء الشرقي وتسمية بلدة «أبو ديس» في ضواحي المدينة عاصمة للدولة الفلسطينية.

لم يكن بمقدور عرفات أن يوافق على الاقتراح بسبب الضغوط الشعبية، لا سيما بعد ازدياد نفوذ حماس التي أكدت باستمرار أن اتفاقيات أوسلو لن تسفر عن إقامة دولة فلسطينية، وقد كانت وجهة نظرها صحيحة.

وبعد فترة، اعترف Robert Mally، أحد أهم المقربين من

الرئيس كلينتون، أن البيت الأبيض لم يلعب دور الوسيط بل كان متحيزاً إلى رئيس الوزراء إيهود بارك الذي لم يعرض قط على عرفات خارطة بحدود معينة، وبينما كان يتحدث عن الانسحاب من الأراضي المحتلة، كان يقوم بتوسيع المستوطنات أكثر من أسلافه. وخلال سبع سنوات من المفاوضات ازداد الاستيطان بنسبة ٤٠ ٪ في الأراضي التي تعهدت إسرائيل بالتخلي عنها خلال فترة زمنية مقدارها خمسة أعوام.

ألقى باراك مسؤولية فشل المفاوضات على عرفات زاعماً أنه قد قدم له أفضل عرض في التاريخ وأن عرفات رفضه، ولم يكن هناك من تتفاوض معه إسرائيل. وبعد فترة قصيرة اندلعت الانتفاضة.

٦٤ ـ كيف اندلعت الانتفاضة الثانية عام ٢٠٠٠؟

أدى فشل اتفاقيات أوسلو وكامب دافيد إلى اشتداد حدّة الكفاح الفلسطيني ضد الاحتلال، ويعود اندلاع التمرد الجديد في ٢٦ تشرين الثاني/ نوفمبر عام ٢٠٠٠ إلى قيام أريل شارون ـ أحد أهم زعماء اليمين الإسرائيلي ـ بزيارة إلى الشطر القديم من مدينة القدس قرب المسجد الأقصى أحد أهم المساجد عند المسلمين. إن شارون ليس بسياسي عادي إذا ما أخذ في الحسبان علاقته المباشرة بالمجازر المتعددة التي ارتكبها الجيش الإسرائيلي ضد الفلسطينيين، وأبرزها صبرا وشاتيلا.

عُدّت زيارته استفزازاً نجم عنها موجة من مظاهرات الاستنكار، التي امتدت إلى الأراضي المحتلة كلها. وبعد يومين بدأت شبكات التلفزة في أرجاء العالم تعرض طفلاً فلسطينياً عمره ١٢ سنة يلقى حتفه بين ذراعي والده نتيجة إصابته بطلقات الإسرائيليين،

وذلك في تبادل لإطلاق النار بين الجيش الإسرائيلي والشرطة الفلسطينية. هكذا اشتعلت الشرارة التي أدت إلى اندلاع التمرد الذي عرف باسم «الانتفاضة الثانية» أو انتفاضة الأقصى.

وإذا قلنا إن الانتفاضة الأولى التي جرت بين ١٩٨٧ ـ ١٩٨٨ قد سمّيت بانتفاضة الحجارة التي كان يرميها الأطفال الفلسطينيون في مواجهة الدبابات الإسرائيلية، فإن الكفاح المسلح قد شغل حيزاً هاماً من التمرد الثاني. وقبل ذلك بقليل أي في شهر أيار/مايو كان الجيش الإسرائيلي قد انسحب من الجنوب اللبناني بعد ثمانية عشر عاماً من الاحتلال، لم يتمكن خلالها من إلحاق الهزيمة بحزب الله الذي استطاع أن يقيم بنية سياسية عسكرية صلبة في مواجهة الجيش المحتل. لقد رأى الفلسطينيون الانسحاب انتصاراً لحزب الله، وأن العنف وحده قد يرغم الإسرائيليين على الانسحاب بعد ثلاثة وثلاثين عاماً من الاحتلال المتواصل.

إن ميزان القوى غير المتكافئ، والقمع الإسرائيلي للانتفاضة أدى إلى مقتل ثلاثة آلاف فلسطيني خلال سنتين، ومن ثم انكفاء الثورة.

ألقت حكومة باراك مسؤولية الانتفاضة وفشل المفاوضات على عرفات، واتهمته باختيار أسلوب العنف، كما أعلن باراك للملأ عن عدم وجود من يتفاوض معه، وأمر بقصف البنية التحتية للسلطة الفلسطينية بما فيها الوزارات والمستشفيات والمدارس، ونجم عن ذلك مقتل الكثير من المدنيين. بعد فترة وجيزة قدم إيهود باراك استقالته، وفاز اليمين الإسرائيلي في الانتخابات، وأصبح أرييل شارون رئيساً للوزراء.

٦٥ ـ لماذا بنت إسرائيل جدارا اعلى من جدار برلين؟

شرعت الحكومة الإسرائيلية عام ٢٠٠٠ ببناء جدار فصل بذريعة وقف الهجمات الاستشهادية الفلسطينية التي تقوم بها منظمة حماس. يتكون الجدار الذي يبلغ طوله مئات الكيلومترات من أجزاء متعرجة وأخرى محاطة بالأسلاك الشائكة، ويصل ارتفاع الأجزاء الأسمنتية إلى ثمانية أمتار، ما يعادل ضعف ارتفاع جدار برلين «جدار العار»، بينما تشبه الأجزاء المحاطة بالأسلاك الحدود بين بلدين مع طوق من عدة أمتار مكهربة في الوسط، وتوجد على جانبيه آليات عسكرية وأسلاك شائكة بعمق خمسين متراً. لقد تم تصميمه بهذا الشكل لتفادي مقارنته بجدار برلين، لكن الإسرائيليين يتحدثون عن «حاجز أمني».

وبغضّ النظر عن مواصفات الجدار والمعركة السياسية والإعلامية بين الطرفين، فأهم ما يتعلق بالجدار هو مكان بنائه. إن الجدار «الحاجز» لم يبن على الخط الأخضر الشهير، أي على الحدود الدولية الفاصلة بين إسرائيل وفلسطين والتي اعترفت بها الأمم المتحدة. يمتد على جزء من الخط الأخضر ثم يدخل بصورة متعرجة في الأراضي الفلسطينية المحتلة في الضفة الغربية. ٨٠ ٪ منه موجود في الأراضي الفلسطينية مع كثير من المنعطفات. وعند الانتهاء من بنائه سيتجاوز طوله ٦٠٠ كم بسبب المنعطفات والتعرجات، وقد انتزعت آلاف الهكتارات التي يزرعها الفلاحون الفلسطينيون منذ عقود، وهدمت جميع المنازل التي كانت موجودة مكان بنائه، ويتميز بأنه ليس طولياً، إذ بنيت جدران متعددة ومتوازية في أماكن مختلفة. لو كان الهدف فقط الوقاية من الهجمات الإرهابية كما تدّعي إسرائيل، لكان أولى بالإسرائيليين أن يبنوا جداراً داخل الحدود الإسرائيلية المعترف بها دولياً.

لقد أعرب الفلسطينيون دوماً عن رفضهم للجدار الذي يجتاز المدن والبلدات الفلسطينية، ويطوق أحياءً بكاملها ويعبر حقولاً مزروعة. الجدار لا يفصل بين الفلسطينيين والإسرائيليين وإنما بين الفلسطينيين أنفسهم، ويضم أراضي فلسطينية إلى إسرائيل. وقد نشرت منظمة B Tselem الإسرائيلية التي تدافع عن حقوق الإنسان أن ما يقارب ٤٠ ٪ من الفلسطينيين قد تضرروا من الجدار الذي سجن آلاف الأشخاص، كما أصدرت محكمة العدل الدولية في لاهاي عام ٢٠٠٤ قراراً يعدّ الجدار غير شرعي، وانتهاكاً للقانون الدولي.

٦٦ ـ ما هو قطاع غزة؟

قطاع غزة هو أرض صغيرة بمساحة قدرها ٣٦٠ كم مربع، يقع في الجزء الجنوبي الغربي من فلسطين التي كانت رازحة تحت الانتداب البريطاني. يبلغ طوله ٥٠ كم على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، ويتراوح عرضه بين ٦ ـ ١٢ كم. فمن جهة الغرب هناك البحر المتوسط، ومن الأخرى إسرائيل التي تحده من الشمال أيضاً، ومن الجنوب مصر. يمثل أقل من ٥ ٪ من الأراضي التي يطالب بها الفلسطينيون لإقامة دولتهم المستقلة. عموماً يتم الدخول إلى القطاع عبر الحاجز الحدودي الإسرائيلي في Erez بالشمال قرب مدينة رفح الواقعة في الجنوب على الحدود المصرية. وعلى الرغم من عدم حصوله جغرافياً على هوية خاصة، يطلق عليه اسم «القطاع»، ويعرف بهذه التسمية في خرائط المنطقة كافة.

ومع الأخذ في الحسبان غياب الحدود الوطنية الدولية قبل القرن العشرين، لكن مدينة غزة التي احتلها العثمانيون والمصريون والبريطانيون كانت دوماً تحتل أهمية خاصة. لقد ألحق مخطط قطاع

غزة الحالي بالدولة العربية الفلسطينية التي كان من المقرر أن تولد، لكنها لم تر النور حتى الآن. تقرر وقف إطلاق النار عام ١٩٤٨ وأن يصبح القطاع جزءاً من مصر، ومنفصلاً عن شبه جزيرة سيناء التي كانت جزءاً من الأراضي المصرية. لجأ عام ١٩٤٨ حوالى ٢٠٠ ألف من الفلسطينيين المبعدين من مدن فلسطينية مجاورة إلى القطاع حيث كان يعيش ٨٠ ألف نسمة، انتشروا في مخيمات اللاجئين التي تمولها الأمم المتحدة. شكلوا بين ١٩٤٨ ـ ١٩٦٧ جزءاً من مصر بدون أن يصبحوا مصريين، أقاموا مؤسسات بدرجة عالية من الاستقلال الذاتي آملين أن تحل مشكلتهم.

ومع مرور الزمن تحول القطاع إلى إحدى أكثر المناطق كثافة بالسكان في العالم بمعدلات عالية من الفقر والبطالة. يعيش فيه حالياً حوالى مليون ونصف من الفلسطينيين، ٧٥ ٪ منهم نازحون ومسجلون رسمياً لدى الأمم المتحدة، ما يزالون على قيد الحياة.

٦٧ ـ ماذا يعني حصار قطاع غزة؟

يتميز فلسطينيو الضفة الغربية عن أولئك الذين يعيشون في قطاع غزة، بفضل المعونات الغذائية التي توزعها عليهم الأمم المتحدة. وبإمكان هؤلاء الانتقال إلى الأردن ومن هناك إلى الدول الأخرى. يعيش سكان القطاع في عزلة دائمة عن العالم محاصرين في سجن منفتح على السماء منذ عام ١٩٩٣ حين أغلق على العالم الخارجي. وخلال فترة طويلة كانت إسرائيل تأذن للكثير من الفلسطينيين بالدخول إلى أراضيها خلال النهار للعمل بأجور زهيدة. أغلب السكان لا يغادرون القطاع لأن إسرائيل لا تسمح لهم بالخروج، وهناك الكثير منهم قد لقوا حتفهم في المواقع الحدودية منتظرين الحصول على إذن

بالمغادرة. غالباً ما يكون الدخول إلى القطاع شبه مستحيل، وفي مناسبات عدّة تعرضت البواخر المحملة بمعونات إنسانية إلى هجمات البحرية الإسرائيلية، وأرغمت على الابتعاد عن سواحله.

إن اقتصاد قطاع غزة زهيد جداً، لأن إسرائيل تعيق تطوره، إذ تفرض حظراً على دخول المواد الأولية والسلع الغذائية، كما تطبق عراقيل لا تحصى على تصدير منتجاته التي لا يسمح للفلسطينيين بتصديرها مباشرة وإنما بوساطة إسرائيل لأسباب «أمنية». لقد عرقلت إسرائيل منذ فترة طويلة وما تزال تعرقل وصول المواد الطبية والأدوية إلى المستشفيات. وتمنع دخول المأكولات الطازجة، كما تستولي على الضرائب التي تدفع على السلع التي تدخل إلى القطاع (عبر إسرائيل) مما يضعف أية حكومة فلسطينية، نظراً إلى ندرة الموارد التي يمكن استثمارها في البنية التحتية ودفع رواتب موظفي القطاع العام.

لقد أَوْجَدَ الاحتلال منذ ١٩٦٧ حالة من التبعية الكلية لإسرائيل التي لا زالت تتحكم بتوريد وإمداد الكهرباء والمياه والغاز والمحروقات، هذا إذا قبلت بتوريدها. وللتخفيف من الآثار السلبية للحصار، تمّ حفر أنفاق خلال السنوات الأخيرة لإدخال ما يمكن إدخاله من مصر. تقوم إسرائيل إضافة إلى الحصار بقصف يومي للقطاع، مما أدى إلى تدمير جزء كبير من البنية التحتية لمدينة غزة وبخاصة محطات توليد الطاقة، وبقي السكان خلال أسابيع وأشهر بدون كهرباء. كما قصفت إسرائيل المصانع والمستشفيات والمساجد والمدارس، وعطّلت المطار الدولي عام ٢٠٠١. وقام الجيش الإسرائيلي بين عامي ٢٠٠٠ ـ ٢٠٠٤ بهدم ما يقارب خمسة آلاف منزل لأسباب «أمنية».

يبدو أن مصر ليست مكترثة بالحصار لأنها تعد نفسها غيرمسؤولة عنه سياسياً أو عسكرياً منذ عام ١٩٦٧، وترى أن المسؤولية تقع على عاتق إسرائيل. بغضّ النظر عن عدم اكتراث مصر بمصير الفلسطينيين فإنها ليست على استعداد لمواجهة إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية. ويضاف إلى ذلك خلافها السياسي الذي يعود إلى ماض بعيد مع حركة حماس التي تقيم علاقات وثيقة مع منظمة الإخوان المسلمين أهم القوى المعارضة للنظام المصري.

٦٨ ـ متى انسحبت إسرائيل من قطاع غزة؟

أقرّت اتفاقيات أوسلو أن يقوم الإسرائيليون والفلسطينيون بالتفاوض على السبل التي يتوجب على إسرائيل اتباعها للانسحاب من الضفة والقطاع لإنشاء دولة فلسطينية.إن الإجراءات التعسفية المتلاحقة التي تفرضها إسرائيل على سكان القطاع، إضافة إلى رفض معظم الزعماء الإسرائيليين التباحث مع الفلسطينيين قد عطل تلك الاتفاقيات لدرجة يمكننا القول إنها لقيت حتفها.

قدم رئيس الوزراء الإسرائيلي أرييل شارون عام ٢٠٠٣ ما سماه «خطة الفصل». كان هدفه إخلاء إحدى وعشرين مستوطنة في القطاع ثم الانسحاب من هذه الأرض الصغيرة بصورة أحادية الجانب بدون التنسيق مع السلطة الفلسطينية. كان يقطن في تلك المستوطنات تسعة آلاف إسرائيلي يسيطرون على٤٠ ٪ من القطاع، ويحيط بهم مليون ونصف فلسطيني. كانت حراستهم تتطلب انتشاراً عسكرياً معقداً وتكاليف مادية باهظة. أعلن شارون حين قرر الانسحاب من القطاع بصورة أحادية الجانب أنه قام بذلك تعبيراً عن حسن نية الإسرائيليين، وللظهور أمام العالم كأنه مستعد

للسلام، على الرغم من معارضته السافرة لاتفاقيات أوسلو.

كشف Dov Weisglass أحد أهم مستشاري شارون في مقابلة صحفية نشرتها صحيفة «هآرتس» الإسرائيلية الأسباب الحقيقية للانسحاب بقوله، إن خطة الفصل كانت تهدف إلى تجميد عملية السلام وعرقلة قيام دولة فلسطينية والاستمرار في السيطرة على الضفة، وأضاف قائلاً: إن الخطة كأنها وضع الكمية اللازمة من السائل الذي تحفظ فيه أجساد الأموات لئلا تكون هناك عملية سياسية مع الفلسطينيين.

عدّ الكثير من الإسرائيليين خطة الفصل فرصة للفلسطينيين كي يظهروا للعالم أنهم حقاً قادرون على بناء دولة، واقترح Tomas Freidman أحد أهم المعلقين في صحيفة نيويورك تايمز أن يحولوا غزة إلى دبي جديدة، وكأن ذلك أمر ميسر، لكن الانسحاب الإسرائيلي الأحادي الجانب الذي تم خارج إطار اتفاقية للسلام ترك القطاع في وضع مشوش، وعلى مسؤولية الفلسطينيين إدارته بدون أن تتوفر لهم شروط الدولة. واستمرت إسرائيل في السيطرة على نقاط العبور والمجال الجوي وساحل البحر المتوسط، وهكذا فإنها عملياً تستمر باحتلال القطاع.

٦٩ ـ ما أسباب فوز حماس في انتخابات ٢٠٠٦؟

إن إخفاق اتفاقيات أوسلو قد ولّد إحباطاً عميقاً بين الفلسطينيين. لقد روّجت منظمة التحرير بأن اتفاقيات أوسلو ستؤدي إلى قيام دولة فلسطينية مستقلة على المدى القريب، وبعد ثلاثة عشر عاماً، بدا أن قيام الدولة أبعد من أي وقت مضى. أخذ الإحباط ينمو بقدر ما كانت عملية السلام تتعطل، وبدأت منظمة التحرير

تفقد مصداقيتها في قيادة السلطة الوطنية. وعلى الرغم من أن الأغلبية القصوى من الشعب الفلسطيني لم تعد تثق في الإطار العام لاتفاقيات أوسلو، استمرت منظمة التحرير بالتمسك بها بوصفها إستراتيجية سياسية لقيام الدولة الفلسطينية. إن وفاة عرفات وافتقار خلفه محمود عباس إلى السلطة، وانعدام القدرة على مواجهة الاحتلال أدى إلى تراجع دور المنظمة في قيادة السلطة الوطنية. لقد مارست منظمة التحرير الحكم وكأنها تسيطر على مقاليد السلطة، في الوقت الذي لم تكن قادرة على إدارة الشؤون البلدية الأساسية الخاضعة عملياً للإسرائيليين. كما لم تتمكن من الحيلولة دون استمرار إسرائيل في بناء الجدار. وقد فازت حماس في الانتخابات البلدية التي أجريت في مدينة قلقيليا إحدى أكثر المدن تضرراً من الجدار الذي يطوقها كلياً.

ومع أن عدداً من قادة حماس كانوا قد اقترحوا في مناسبات عدة استعدادهم للتفاوض على «هدنة» مع الإسرائيليين، فقد تميز خطابهم بالتشدد أثناء الانتخابات، مع عدم التخلي عن الكفاح المسلح لتحرير فلسطين كلّها. وعزوا انسحاب الجيش الإسرائيلي من قطاع غزة إلى نجاح إستراتيجيتهم في استخدام العنف.

ومن جهة أخرى، بينما كانت التهم توجه إلى قادة منظمة التحرير بتوثيق علاقاتهم مع الأمريكيين، قامت إسرائيل عام ٢٠٠٤ باغتيال أحمد ياسين وعبد العزيز الرنتيسي الزعيمين الرئيسيين لحركة حماس، وذلك في إشارة واضحة إلى أن إسرائيل تعدها العدو الرئيسي، إضافة إلى تهم الفساد والثراء غير المشروع لقادة منظمة التحرير الذين عادوا من المنفى، والانقسامات داخل فتح الحركة الرئيسية في منظمة التحرير.

بدت حماس في ظل هذه الأجواء منظمة متماسكة وقوية وذات قيادة وطنية تتميز بالشفافية، لذلك استطاعت الفوز في انتخابات عام ٢٠٠٦ التي قاطعتها سابقاً.

٧٠ ـ من يحكم في الضفة والقطاع؟

في ٢٩ آذار/مارس ٢٠٠٦ تولىّ إسماعيل هنية ـ أحد قادة حماس ـ منصب رئيس وزراء السلطة الوطنية الفلسطينية التي كانت ماتزال بقيادة محمود عباس ممثل منظمة التحرير. لم تعترف الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد الأوروبي وإسرائيل بالحكومة الجديدة بذريعة أن حماس منظمة إرهابية. لقد اتخذ هذا القرار على الرغم من أن الانتخابات قد وصفت بأنها الأكثر ديمقراطية في الوطن العربي حيث تدار العمليات الانتخابية من قبل الحكومة التي تتولى السلطة. إن إسرائيل التي كانت تبسط سيطرتها الكلية على الأراضي الفلسطينية حالت دون انتقال النواب من الضفة إلى القطاع للمشاركة في أداء القسم للحكومة الجديدة، وقامت باعتقال وسجن ثلث البرلمانيين. ومن أجل فرض حصار شامل على حكومة حماس منعت إسرائيل وصول التبرعات الدولية، وحجزت ملايين الدولارات العائدة إلى الفلسطينيين جرّاء تحصيل الضرائب الجمركية.

كان على منظمة التحرير بوصفها القائد التاريخي للفلسطينيين التي منحت الشعب الفلسطيني هويته، وتمكنت من وضع القضية الفلسطينية في مركز السياسة الدولية أن تسلم بالأمر الواقع وأن تتنازل لمنظمة دينية حديثة العهد لتحل مكانها. لم يكن سهلاً على منظمة التحرير الإقرار بالهزيمة. بدأت المواجهات بين الرئيس عباس وحماس وأسفرت عن نزاع مسلح بين الأحزاب الرئيسية الفلسطينية

في قطاع غزة، كان النزاع يشبه الحرب الأهلية إلى حد بعيد.

أظهرت حماس أنها أكثر قوة من فتح، واستمرت بممارسة السلطة في القطاع، بينما اقتصر حكم عباس على الضفة، ولم يعرف الفلسطينيون وضعاً أكثر سوءاً من قبل. وإلى جانب الانفصال الطبيعي الجغرافي بين الضفة والقطاع، جاء الانقسام السياسي الجديد، وشكلت حكومتان فلسطينيتان مما أسفر عن تراجع المطالبة بقيام دولة فلسطينية.

٧١ ـ هل صحيح أن إسرائيل هي الدولة الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط؟

إن الحجة الوحيدة لإثبات هذه المقولة تكمن في إجراء انتخابات حرة ومنتظمة، وأن يكون للأحزاب السياسية فيها حريات واسعة للتعبير عن أفكارها وآرائها، إضافة إلى وجود صحافة مستقلة وغياب الانقلابات العسكرية.

صحيح أن جميع هذه المفهومات تتألق في إسرائيل نتيجة لغيابها في كثير من الدول العربية، غير أن هناك مؤشرات كثيرة تثير الشكوك حول الديمقراطية الإسرائيلية، التي يعدونها الوحيدة في الشرق الأوسط بحسب زعمهم.

هناك طرق مختلفة لتحديد مفهوم الديمقراطية، على الرغم من وجود سمة أساسية تتمثل في المساواة بين المواطنين أمام القانون. يعرّف الأكاديمي الإسرائيلي Oren Yiftachel دولة إسرائيل بالديمقراطية الإثنية «Etnocracy» بسبب غلبة الانتماء الإثني على مفهوم المواطنة، كما تعرف إسرائيل بالدولة اليهودية، دولة لجميع يهود العالم، لكن ليس لمواطنيها من غير اليهود.

لذلك يجدر بنا أن نتساءل إذا كانت هذه الدولة التي تعرف نفسها بأنها يهودية، مع أن ٢٠ ٪ من سكانها ليسوا من اليهود، هي ديمقراطية حقاً. ووفق السيد Yiftachel فإن النظام السياسي الإسرائيلي يجدي كآلية لأغلبية يهودية بهدف إلحاق الضرر بالأقلية العربية. والمثال الذي يدعم هذه النظرية هو الكيبوتز الذي يعد تجربة اشتراكية إلا أنه يحظر على أي عربي أن يشكل جزءاً منه فقط لكونه عربياً.

لا شك أن هناك تناقضاً بين دولة ديمقراطية متعددة الثقافات والإثنيات، ودولة يهودية لمجموعة إثنية واحدة. كما يمكن التساؤل أيضاً فيما إذا كان بالإمكان عدّ دولة إسرائيل ديمقراطية مع أنها احتلت أرضاً لبنانية لمدة عشرين عاماً، وما تزال تحتل أراضي سورية منذ أكثر من أربعين عاماً، وأراضي أخرى بعيدة عن الأسس والمبادئ الديمقراطية. لاريب أن الإسرائيليين مقتنعون بعدم وجود تناقض بين المبادئ الديمقراطية لبلادهم والأساليب التي تطبق في الأراضي المحتلة على الرغم من أنها قمعية. يعدّ الأمريكيون والأوروبيون ـ باستثناء الحالة اللبنانية ـ دولة إسرائيل الديمقراطية الوحيدة في المنطقة، أما بالنسبة إلى الفلسطينيين فإنها لا يمكن أن تكون مصدر إلهام لأي نظام ديمقراطي.

٧٢ ـ لماذا تتمتع الولايات المتحدة بنفوذ واسع في الشرق الأوسط؟

استطاعت كل من بريطانيا وفرنسا أن تترك بصماتها في المنطقة منذ أفول الحرب العالمية الأولى، أما بعد الحرب الثانية فقد برزت الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفياتي بوصفهما قوتين مهيمنتين، وهما تتدخلان في شؤون الحكومات وفقاً لمصالحهما

الخاصة. إن زوال الاتحاد السوفياتي ترك الولايات المتحدة قوة وحيدة مهيمنة بنفوذ مباشر في أنحاء العالم كافة، وهناك عدد من دول الشرق الأوسط تعتمد على المساعدات الاقتصادية والعسكرية والسياسية الأمريكية كي تستمر في الوجود، ونخص بالذكر مصر وإسرائيل. وبعد طرد القوات العراقية من الكويت عام ١٩٩١ بتأييد من معظم البلدان العربية، وغزو العراق عام ٢٠٠٣، أصبح للولايات المتحدة وجود عسكري مباشر في المنطقة، لم يكن موجوداً من قبل.

إن انكفاء الكتلة السوفياتية لم ينجم فقط عن فقدان منظمة التحرير لحليفها الرئيسي وحسب، بل خسرت سندها السياسي والاقتصادي والعسكري كي يتسنى لها إنشاء دولة مستقلة، وقد تزامن ذلك مع التحول في الدبلوماسية الفلسطينية منذ أن أرغمت قيادتها السياسية على مغادرة لبنان لتجد ملاذاً في تونس بعيداً عن مركز الصراع وبدون أن يكون لها حدود مع إسرائيل. ارتأى معظم زعماء المنظمة أنه من الضروري حياكة روابط مع البيت الأبيض كخيار وحيد لتحقيق أهدافها.

لقد راهن الزعماء الإسرائيليون دوماً على الدعم غير المشروط الذي تقدمه الولايات المتحدة لإسرائيل. حتى في الأوقات الحرجة، وعلى الرغم من وقوف الرأي العام العالمي ضدها أثناء الغزو الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢ وعام ٢٠٠٦ والهجوم على غزة عام ٢٠٠٨ قدمت الولايات المتحدة الدعم لإسرائيل بدون تردد، لدرجة أنها بررت حالات كثيرة لم تكن بعض الجاليات اليهودية على استعداد لتسويغها.

يرى الإسرائيليون والفلسطينيون أن عملية السلام في المنطقة

يجب أن تمر عبر واشنطن، كما تعتقد البلدان العربية أنها الدولة الوحيدة التي يمكن أن تمارس الضغط على إسرائيل. ويدرك الإسرائيليون أن الدعم غير المشروط من البيت الأبيض يوفر لهم نوعاً من الحصانة أمام الضغوط الدولية، بما فيها الأمم المتحدة، لا سيما أن الولايات المتحدة استخدمت حق النقض «الفيتو» لإبطال العديد من القرارات التي أدانت إسرائيل.

٧٣ ـ هل النزاع الفلسطيني ـ الإسرائيلي ديني أم قومي؟

بدأ النزاع الفلسطيني ـ الإسرائيلي على شكل مواجهة بين حركتين متضادتين. كانت الحركة الصهيونية علمانية في بداياتها، وتطلعت دوماً إلى بناء دولة قومية لتكون وطناً لليهود كلهم. أما بالنسبة إلى الفلسطينيين الذين تأثروا بالكفاح ضد الاستعمار وبالأفكار الأوروبية، فقد استخدموا أيضاً مفهومات الوطن والقومية، وابتعدوا عن الفكر الديني التقليدي السابق لظهور هذه المفهومات الحديثة في القرن التاسع عشر.

تميز الخطاب الصهيوني خلال مرحلة النضال لإقامة الدولة اليهودية بالبراغماتية(*)، وذلك بخصوص الأرض التي كانوا يطمحون إلى بناء الدولة فيها. لم تكن هناك أماكن مقدسة ولا أراض لا يمكن التخلي عنها وفقاً لما جاء في العهد القديم، وهذا ينسحب على الفلسطينيين إذ كانت الأرض بالنسبة إليهم رمزاً

(*) البراغماتية: «Pragmatism» ترجمت إلى الذرائعية النفعية وهي اتجاه فلسفي أمريكي أرسى دعائمه الفيلسوف الأمريكي شالرز ساندرس بيرس... وهذه سمة السياسة الأمريكية. (المدقق) للتوسع، انظر «أكسم فياض: نحو مقاربة تداولية لسانية لتحليل الخطاب السياسي الصحفي،» (رسالة ماجستير، جامعة تشرين، كلية الآداب، ٢٠١٠). مخطوط قيد النشر.

للمكان الذي عاش فيه الفلسطينيون بالتساوي، مسلمون أم مسيحيون.

لقد تغير هذا التفكير في أعقاب حرب ١٩٦٧، فاحتلال الضفة والقطاع، وبخاصة مدينة القدس أوجد تحولاً في الخطاب السياسي الإسرائيلي إثر تصاعد نفوذ المجموعات القومية الدينية المتطرفة التي مزجت بين القومية والفكر اللاهوتي. فلم تعد الذرائع في عدم التخلي عن الأراضي المحتلة براغماتية أو سياسية بل أخذت تتحول إلى سماوية. كان مئات الحاخامات من ذوي النفوذ يقولون إن التخلي عن «أرض إسرائيل» التي حررت من الأجانب هو واحد من الخطايا. بدأ يزداد استخدام مصطلح «أرض إسرائيل» بوصفها وحدة متكاملة، وتم استبعاد مفهوم الأرض القابلة للتفاوض. وفي الفترة نفسها شهد الوطن العربي موجة متصاعدة من الحركات الإسلامية التي روّجت موضوع فشل محاولات الحركات القومية في تحرير فلسطين بسبب تخليها عن الإيمان واستسلامها للأيديولوجيات القومية الغريبة عن الإسلام، وبرزت حركة حماس نتيجة لهذا التفكير، واختلطت قضية تحرير فلسطين بتحرير الأراضي المقدسة في مدينة القدس من سيطرة اليهود. إن نمو الخطاب اللاهوتي ـ السياسي لدى الجانبين واللجوء إلى استثارة العواطف الدينية والمفهومات المقدسة يزيد بلا شك من صعوبة المفاوضات السياسية.

٧٤ ـ هل تعترف حماس بدولة إسرائيل؟

يدعو البرنامج التأسيسي لحركة حماس الذي نشر في شهر آب/ أغسطس عام ١٩٨٨ إلى تحرير فلسطين كلها، وتدمير دولة إسرائيل، وهو يشبه إلى حد ما برنامج منظمة التحرير في بداياتها، ولكن من

وجهة نظر دينية. وبنفس الطريقة التي شرعت فيها منظمة التحرير بالتراجع عن شعار تدمير الكيان الصهيوني والقبول بفكرة قيام دولة فلسطينية مستقلة في الضفة والقطاع، فقد بدأت حماس بمرور الزمن أيضاً بتغيير مواقفها. وكما أشرنا إلى أن برنامجها التأسيسي كان يتضمن نزعة معادية للصهيونية واليهود، لكن لا بد من الإشارة إلى ما قاله الشيخ أحمد ياسين عام ٢٠٠١ «إننا لا نقاتل ضد شعوب من ديانات أخرى أو ضد اليهود لمجرد أنهم يهود، بل نقاتل ضد الذين احتلوا أرضنا، واستولوا على ممتلكاتنا، وجعلوا العائلات الفلسطينية لاجئين وذبحوا أطفالنا ونساءنا». وقد بيّنت وثائق عدة منذ عام ١٩٩٥ أن حماس تسعى إلى التوصل إلى اتفاق مع إسرائيل، لكن ليس بالأسلوب الذي اتبعه عرفات، وتعدّه حماس مهيناً للفلسطينيين.

لقد طرح عبد العزيز الرنتيسي الذي تسلم قيادة الحركة خلفاً للشيخ ياسين الذي اغتالته إسرائيل بعد أشهر من تسلمه القيادة عام ٢٠٠٢ ضرورة الانسحاب من القطاع والضفة ليتسنى إقامة دولة مستقلة. لا شك أن الواقع ذاته قد فرض عليه إجراء تغييرات في مبادئ الحركة التي شاركت في الانتخابات الرئاسية للسلطة الفلسطينية. إن المشاركة في الانتخابات يعدّ اعترافاً ضمنياً بالإطار العام لاتفاقيات أوسلو التي رفضتها سابقاً، كما عدّت بمنزلة اعتراف مضمر بدولة إسرائيل. قام المفكر الفلسطيني خالد خروب، مؤلف العديد من الكتب والدراسات الإكاديمية، بإجراء تحليل مسهب لوثائق المنظمة لتفهم التحول الذي طرأ على سياستها في السنوات الأخيرة، وبعد دراسة برنامجها الإنتخابي استنتج أن حماس قد باتت أقل تشدداً عمّا كانت عليه عام ١٩٨٨، وأصبحت أكثر براغماتية، إلا أن هذا التحول لا يعني اعترافاً علنياً بإسرائيل، كما

فعلت منظمة التحرير منذ سنوات، مما يؤكد وجود اختلاف كبير بين كلتا المنظمتين السياسيتين، كما يؤكد خروب أن هذا التغيير هو ثمرة وجودها في السلطة والتزاماتها نحو الاستجابة إلى المتطلبات الحياتية للشعب الفلسطيني، ويضيف بأن الاستمرار في هذا الخطاب يتوقف على وجودها في السلطة وموقف إسرائيل من الفلسطينيين.

٧٥ ـ ما الأهمية التي تمثلها بعض الأماكن التي تعد مقدسة بالنسبة إلى اليهود؟

أعلنت الحكومة الإسرائيلية عقب احتلالها للضفة والقطاع أنها ستعيد هذه الأراضي ضمن إطار مفاوضات السلام في المستقبل. ونتيجة لتنامي التشدد الديني داخل المجتمع الإسرائيلي، أخذت بعض المدن المأهولة بالفلسطينيين، حيث عاش اليهود في الماضي أو حيث يوجد أضرحة لرموز دينية يهودية وردت في الإنجيل، تأخذ صبغة القدسية، على الرغم من أن الديانة اليهودية قد تميزت خلال قرون بعدم تقديس الأماكن أو الجوامد. وبدأت حركات عدة قومية/ دينية بدعم من السلطة السياسية بتقديس هذه الأماكن، وطالبت أن تكون تحت السيطرة اليهودية وفقاً لمبادئ الديانة اليهودية.

تقول إحدى الأساطير إن مدينة الخليل العربية، حبرون بالعبرية، تأوي أضرحة للعديد من الرموز الدينية بخاصة ضريح النبي إبراهيم الذي يوقره المسلمون. أصبحت المدينة بعد عام ١٩٦٧ تحت سيطرة الجيش الإسرائيلي، وسمحت الحكومة لمجموعة من اليهود لا يتجاوز عددها ٥٠٠ شخص أن تنتزع قلب المدينة التي يسكنها أكثر من ١٦٠ ألف فلسطيني.

وجاء في الأسطورة أيضاً أن مدينة بيت لحم تحتوي على رفاة

القديسة راكيل، وأن ضريحها مسور حالياً بجدار بنته إسرائيل بارتفاع ٨ أمتار، يقع الضريح في الشارع الرئيسي للمدينة بجوار مقبرة إسلامية، وأصبح مكاناً مقدساً من مجموعة صغيرة من اليهود المتدينين. قلة ضئيلة من الناس تقوم بزيارته، وبغية تسهيل وصول هؤلاء اليهود، وللحيلولة دون حدوث أي احتكاك مع الفلسطينيين، تم شقّ طريق خاص باليهود ليربط مكان الضريح بمدينة القدس.

بدأ الاحتلال يصعّد من لهجة الخطاب الديني المخلّص تجاه هذه الأماكن وحائط المبكى. لقد تم تلفيق رواية للخلاص بدون المسيح، وتحولت الطوباوية إلى واقع بعد الاستيلاء على مجمل الأراضي الإنجيلية لإسرائيل قبل وصول المسيح، وزوّرت الرواية الدينية التقليدية. وكما يقول المنظّر السياسي Ian Lustick الذي شغل سابقاً منصب رئيس مركز الدراسات الإسرائيلية في الولايات المتحدة الأمريكية بعد حرب ١٩٦٧: لقد بدأت كلمات الأرض، الشعب والإنجيل بمعناها الديني تحل مكان مفهومات الحدود والمواطنة وقوانين الدولة.

٧٦ ـ ما هو الوضع الراهن الذي يعيشه اللاجئون الفلسطينيون؟

ما يزال معظم اللاجئين الفلسطينيين، الذين نزحوا عام ١٩٤٨ والمتحدرين منهم، يأملون بالعودة إلى فلسطين، كما يأملون أن أي حل سياسي سيأخذ قضيتهم على محمل الجد، وبخاصة أولئك الذين يعيشون في البلدان العربية قرب وطنهم الأم.

إن وضع اللاجئين الفلسطينيين في البلدان العربية معقد، ويختلف من بلد إلى آخر. وبصورة عامة ترى البلدان العربية أن منحهم حقوقاً كاملة، وتطبيع وضعهم في البلدان التي لجؤوا إليها

سيبرّئ إسرائيل من مسؤولياتها، وسيغلق الأبواب أمامهم إذا ما توفرت ظروف العودة. لقد أدى الإعلان عن هذه المبادئ إلى ازدياد أوضاعهم سوءاً.

هناك حالتان متضادتان فيما يتعلق بأوضاعهم، هما الأردن ولبنان، ففي الأردن يعيش كثير منهم في مخيمات، لكنهم يتمعون بحقوق واسعة، وبإمكانهم الحصول على جوازات سفر، أما في لبنان، حيث يسكن أغلب اللاجئين في مخيمات، فيقوم الجيش اللبناني بحراستها، ولا يسمح لهم بممارسة الكثير من الحرف والمِهَن، يصل عددها إلى السبعين. ويحظر عليهم مزوالة الطب، رسمياً، على سبيل المثال، ممّا يرغمهم على مزوالة أعمال غير رسمية وبأجور متدنية، ولا يحق لهم حيازة جوازات سفر، ويحملون وثائق من هيئة اللاجئين في الأمم المتحدة.

إنها حالة معقدة لدرجة أن الرئيس محمود عباس طلب عام ٢٠٠٥ من الحكومات العربية أن تمنحهم الجنسية كي يتسنى لهم التنقل، ومن ثم تحسين ظروفهم الحياتية.

لقد أسهمت التقنيات الحديثة في حدوث انقلاب في حياة اللاجئين، إذ يمكنهم في الوقت الراهن أن يبحثوا عبر الإنترنت عن صور المدن والقرى الأصلية التي نزحوا منها، ويمكنهم الاتصال بذويهم الذين يعيشون هناك بعد عقود من فقدان الروابط. ومع ذلك فهم رهائن في دائرة مفرغة، إذ ليس بإمكانهم العودة إلى أرضهم، ومصيرهم متوقف على مساومات الآخرين، وبخاصة منظمة التحرير التي تفاوض على مصيرهم. ومن جهة أخرى، وعلى الرغم من أن لقضيتهم حضوراً في الخطابات العربية الرسمية، فإن الجنسية محظورة

عليهم في أغلب البلدان العربية خشية أن يتوطنوا فيها بصورة دائمة مما يزيد من تفاقم أزمتهم.

٧٧ ـ لماذا قال رئيس وزراء إسرائيلي سابق «لو أنه ولد فلسطينياً لانضم إلى منظمة إرهابية»؟

بظهور المؤرخين الإسرائيليين الجدد وانتشار مصطلح «النكبة»، ازدادت القناعة بين الإسرائيليين بأن الفلسطينيين قد تعرضوا إلى مأساة حقيقية عام ١٩٤٨. يصف وزير الخارجية الأسبق شلومو بن عامي من حزب العمل في كتابه «التئام الحرب وجروح السلام» العواقب الفظيعة التي خلّفتها مجازر الحركة الصهيونية خلال الفترة التي سبقت قيام دولة إسرائيل وأثناء احتلال الضفة والقطاع. وبخلاف أغلبية السياسيين الإسرائيليين الذين ما زالوا ينكرون معاناة الفلسطينيين، ويتملّصون من أنواع المسؤولية كلّها، اعترف بن عامي أن دولة إسرائيل كانت وما تزال المسؤول الأول عن هذه المعاناة.

في عام ١٩٩٩ سئل الزعيم العمالي إيهود بارك خلال مقابلة تليفزيونية: ماذا يفعل لو أنه ولد فلسطينياً، لقد أذهل جوابه المتفرجين «كنت قد انضممت إلى منظمة إرهابية». إن باراك ليس شخصاً عادياً، له تاريخ طويل في الجيش الإسرائيلي، وأكثر ضابط قد تقلد أوسمة عسكرية في تاريخ إسرائيل، كما شغل منصب القائد العام للقوات المسلحة، وبعد ذلك أصبح رئيساً للوزراء. لقد رويت أساطير عدة حول مشاركته في عمليات عسكرية مريعة ضد الفلسطينيين. كان جوابه بمنزلة إضفاء الشرعية على الكفاح الفلسطيني الذي أثار الذعر في صفوف الكثير من الإسرائيليين،

كما عُدّ إقراراً بعدالة المطالب الفلسطينية، ولكن بدون القبول بها.
إن العنف (من الطرفين) الذي خيّم على النزاع منذ بدايته يعدّ لاعقلانياً وغير مبرّرعندما يصدر من الطرف الآخر، بدت تصريحاته وكأنها قد أضفت الشرعية على العنف الفلسطيني، كما يمكن تفسيرها بأنها تبرير لاستخدام العنف إذ ما أخذ في الحسبان أن جميع تيارات الحركة الصهيونية ـ قبل قيام إسرائيل ـ قد استخدمت العنف والإرهاب أيضاً ضد المدنيين. وفي عام ١٩٤٦ قامت منظمة «إرغون» التي كان يتزعمها ميناحيم بيغين بتفجير فندق الملك داود مقر القيادة العامة للقوات البريطانية في فلسطين آنذاك، وقتلت أكثر من تسعين شخصاً أغلبهم من المدنيين. وإثر ذلك الهجوم أدرجت بريطانيا ميناحيم بيغين في قائمة الإرهابيين المطلوبين من قبل العدالة البريطانية، وبعد ثلاثين عاماً نال بيغين جائزة نوبل للسلام عام ١٩٧٨ لقاء الاتفاقيات التي وقعها مع الرئيس المصري أنور السادات. لقد أظهرت صراحة باراك أن إحدى القضايا الأكثر تعقيداً في الصراع الفلسطيني ـ الإسرائيلي تكمن في عدم تفهم ما يجري للطرف الآخر.

٧٨ ـ هل تشكل الهجمات الاستشهادية الفلسطينية العائق الأساسي لتحقيق السلام؟

تعدّ الهجمات الاستشهادية ظاهرة حديثة في النزاع الفلسطيني ـ الإسرائيلي، ولا سيما أنها بدأت بعد التوقيع على اتفاقيات أوسلو عام ١٩٩٣. ومنذ ذلك الحين تزعم الحكومات الإسرائيلية أن العنف الفلسطيني، بخاصة الهجمات الاستشهادية تشكل العائق الرئيسي للسلام، وذلك في محاولة منها لإقناع العالم أنه لولاها لكان السلام سهل المنال. هذه الهجمات، يعدّها الإسرائيليون أنموذجاً للتشدد

الديني والعناد الفلسطيني، وازدراء للحياة الإنسانية نفسها، إلا أن الفلسطينيين يعدّونها سلاحاً فعّالاً في إلحاق الأذى بالإسرائيليين ومقاومة للقوة العسكرية والتكنولوجيا، على الرغم من أن أغلبية الضحايا هم من المدنيين، وأنها لن تؤدي إلى تحرير فلسطين.

إن الهدف الأساسي لهذا لنوع من الهجمات في الشرق الأوسط والعالم يكمن في تحقيق ضربات مؤلمة بعدو لايعرف الرأفة، ويصعب إلحاق الهزيمة به. الفلسطينيون ليسوا من ابتكر هذه العمليات، وليست من مورثات الشرق الأوسط لأن النمور التاميل في سيرلانكا كانوا السبّاقين في اغتيال رئيس الوزراء الهندي راجيف غاندي عام ١٩٩١ بهجوم انتحاري.

أجرى الضابط الإسرائيلي غال لوفت Gal Luft دراسة تحليلية قارن فيها بين العمليات القتالية الفلسطينية ضد الجيش الإسرائيلي والهجمات الانتحارية بهدف التحقق من فعاليتها، فاكتشف أن الحركات الإسلامية استطاعت أن تقتل إسرائيليين في ٣٥٠ عملية أكثر مما حققته في ثمانية آلاف هجوم قتالي. وبعد تحليل الآثار التي خلفتها الهجمات الانتحارية في أربع عشرة بلدة، توصل لوفت إلى نتيجة مفادها أن ما يميز هذه العمليات هو النجاح في تحقيق أكبر عدد ممكن من الخسائر البشرية في صفوف العدو.

تزامنت انطلاقة الهجمات الاستشهادية مع أعلى درجات الإحباط تجاه اتفاقيات أوسلو، وفشل الإستراتيجيات السياسية والعسكرية الأخرى. إن الهجمات الاستشهادية وعواقبها سواء أكان على مستوى الضحايا أو المعاناة بين المدنيين قد أدت بدون أدنى شك إلى عرقلة وتوقف المفاوضات، وجعلتها إسرائيل ذريعة للبدء في بناء

جذار الفصل، إلا أنه لا يمكن التأكيد أن هذه الهجمات مسؤولة عن فشل السلام بين الفلسطينيين والإسرائيليين، ولا سيما أنها ظهرت بعد ثلاثين عاماً من احتلال الضفة والقطاع.

٧٩ ـ ما موقف الفلسطينيين تجاه العنف والهجمات الاستشهادية؟

استخدمت منظمة التحرير الفلسطينية منذ بداياتها العنف أسلوباً لكفاحها السياسي لتحقيق أهدافها في تحرير فلسطين، وقد بشّرت اتفاقيات أوسلو التي حظيت بدعم الأغلبية بنهاية العنف السياسي، لكن فشلها والإحباط الناجم عن انعدام القدرة على إنهاء الاحتلال قد مهّد الطريق لنوع جديد من العنف. بغضّ النظر عن النقاش الأخلاقي حول هذا الأسلوب من الكفاح بصورة عامة، والهجمات الاستشهادية بصورة خاصة، ليس هناك مجال للشك أنه بينما كانت اتفاقيات أوسلو تحقق تقدماً، كانت أغلبية الفلسطينيين ترفض هذا النوع من الهجمات. وعلى العكس، فبينما كانت الاتفاقيات تتعطل كان أسلوب العنف ضد الإسرائيليين يتلقى المزيد من الدعم بين الفلسطينيين.

ونتيجة لذلك تعمقت النقاشات بين الفلسطينيين حول ميزات العنف التي تتلخص في أربعة مواقف: هناك الذين يعتقدون فقط بضرورة الهجوم على الجنود الإسرائيليين في الأراضي المحتلة وتفادي المدنيين في المستوطنات، بينما يبرر آخرون مهاجمة المستوطنين لأنهم يشكلون جزءاً من مشروع مدني ـ عسكري للاستيلاء على الأراضي الفلسطينية، وتسوغ المجموعة الثالثة أيضاً الهجوم على الأراضي الإسرائيلية لأنها ترى أن الإسرائيليين جميعهم مسؤولون عن الاحتلال

بدون التمييز بين مدنيين وعسكريين، هذا ويعارض الفريق الرابع العنف بأشكاله المختلفة، ويؤكد تطوير شبكات للمقاومة السلمية؛ لقد نما أعضاء هذا الفريق خارج الأحزاب السياسية بقيادة مواطنين ينظمون أنفسهم ضد الاحتلال حيث يعيشون. ويقوم سكان بلدة بعلين منذ عام ٢٠٠٥ بتنظيم مظاهرات سلمية ضد الجدار الذي يبنى حول أراضيهم. وللتعبير عن المقاومة السلمية قام بعض الحائزين على جائزة نوبل للسلام بزيارة البلدة، ويتضامن مع هؤلاء العديد من الإسرائيليين. وعلى الرغم من القمع الإسرائيلي ووقوع الجرحى والقتلى ما يزال سكان الكثير من القرى يختارون المقاومة السلمية، لكن وسائل الإعلام تتجاهلها، وتركز على أحداث العنف.

لا يختلف الجدال الدائر بين الفلسطينيين حول العنف عن النقاشات التي عرفتها معظم حركات التحرر الوطنية في أمريكا وآسيا، وذلك لاختيار الإستراتيجية السياسية في مقاومة الاستعمار داخل أراضيها. خضعت المواقف السياسية والأيديولوجية بين الفلسطينيين بشأن استخدام العنف للتقدم والتراجع في مسيرة السلام. وصارت المعادلة سهلة: بقدر ما يتم تحقيق التقدم يتراجع قبول العنف، والعكس صحيح.

٨٠ ـ كيف يؤثر العنف الفلسطيني في الإسرائيليين؟

كل مرة يقوم أحد الفلسطينيين بوضع قنبلة في حافلة أو شارع، يولّد مرضاً نفسياً وعقلياً بين عموم الإسرائيليين. إن العنف الذي يضرب بدون تمييز يخلق إحساساً بالرعب الدائم أكثر مما تسببه صواريخ الكاتيوشا التي تطلق من الضفة والقطاع أو من جنوب لبنان على الأراضي الإسرائيلية. في الحرب التقليدية يمكن تحديد مكان

العدو وهناك قواعد ومعايير معينة في الحرب، أما الهجمات التي تستهدف الجميع فتهدف إلى إثارة الذعر بين السكان كلّهم، ويتحوّل أغلب الفلسطينيين إلى مشبوهين قد يفجرون أنفسهم في أي وقت. لقد أصبح أمراً معتاداً في إسرائيل أثناء الذهاب إلى السينما أو إلى مبنى حكومي أن يتفحصوا الحقائب أو الجزادين كإجراء احتياطي، لأن التهديد بانفجار قنبلة وارد، مع أن هذ الإجراء سابق للتفجيرات التي بدأت في التسعينيات.

سجلت اتفاقيات أوسلو نقطة انعطاف، إذ اعتقد الإسرائيليون أن ظاهرة العنف الفلسطيني ستتلاشى، لكن هذا النوع من العنف قد تواصل وسدّ الطريق في وجه الحوار العقلاني، والردّ الذي يطالب به أغلب الإسرائيليين هو الأسلوب العسكري غير المهادن كما جرى قبل القيام باحتلال غزة عام ٢٠٠٨. وبشكل عام هناك أصوات بين الفلسطينيين تقول: إذا لم يلجأ الفلسطينيون إلى العنف فإن الحوار ممكن. في الحقيقة الإسرائيليون ليسوا على استعداد للإقرار بأن الاحتلال هو عمل عنيف بحد ذاته، وأن الاحتلال بأشكاله المتعددة يجلب أنواعاً مختلفة من العنف.

وعلى الرغم من أن انتفاضة ١٩٨٧ قد استخدمت الحجارة، ولم يشن الفلسطينيون أية هجمات على السكان المدنيين داخل إسرائيل، إلا أنها لم توقظ ضمير معظم الإسرائيليين الذين يتملكهم الشعور بأن الفلسطينيين يهاجمونهم لمجرد كونهم يهوداً.

٨١ ـ كيف يؤثر العنف الإسرائيلي في الفلسطينيين؟

إن الحياة اليومية للفلسطينيين في الضفة والقطاع محكومة بالعنف الإسرائيلي منذ ١٩٦٧، وتختلف عن حياة الإسرائيليين الذين يخشون

هجوماً خارجياً. فالاحتلال بالنسبة إلى الفلسطينيين يمثل واقعاً ملموساً يوماً بعد يوم، فالمدرعات تجوب المدن، والجنود يدخلون ويخرجون منها لاعتقال الفلسطينيين، والطائرات تقصف باستمرار وتقتل المدنيين وتثير الرعب بين السكان كلّهم. وبإمكان قوات الاحتلال أن تفرض حظر التجول وزجّ أيّ شخص في السجن. لقد رزح العديد من الفلسطينيين في السجون لسنوات طويلة تحت شعار «الاعتقال الإداري»، وقد يمكث المعتقل في السجن أعواماً بدون محاكمة. فالإسرائيلي في نظر الفلسطينيين يمثل صورة الجندي الذي يحتل أرضهم منذ أكثر من أربعين عاماً، مما يعني أن هناك أكثر من جيل قد ولد تحت الاحتلال العسكري الأجنبي الذي يضمرون له أشد أنواع الحقد.

كل ذلك يبدو قليلاً، فالإسرائيليون الذين يسكنون المستوطنات لم ينزعوا منهم أراضيهم، ولم يقتلعوا آلاف أشجار الزيتون منها وحسب (عمل عنيف بحد ذاته)، بل يشنون الغارات من حين إلى آخر على القرى والمدن العربية فيثيرون الرعب في السكان. وإضافة إلى ذلك فإن الصور التي تلتقطها وسائل الإعلام تعرض المستوطنين وهم يطلقون النار على الفلسطينيين بهدف القتل، والشهادات التي تجمعها إذ يعترف الإسرائيليون بأفعالهم تزيد الشعور بالإحباط لدى الشعب الفلسطيني، وفضلاً عن ذلك، يرون المسؤولين عنها بدون عقاب أو محاسبة.

كتب Jerry Levin مدير CNN في لبنان خلال الثمانينيات حول تجربة حياته في مدينة الخليل (حبرون) والعلاقة مع المستوطنين. عاش Levin هناك مع مجموعة من المسيحيين من دعاة السلام، أكد فيه أن سعادته الفائقة كانت تكمن في مرافقة الأطفال الفلسطينيين إلى

المدرسة في الصباح لئلا يقوم المستوطنون بالاعتداء عليهم في الطريق. هذا ما يجري هناك يومياً أمام أنظار الجنود الإسرائيليين الذين يغضّون الأنظار عن مثل هذه الاعتداءات.

لا شك أن العنف يولّد إحباطاً ورغبة عارمة في الأخذ بالثأر، وإن لم ينجم عنه تحقيق مكاسب سياسية.

٨٢ ـ هل صحيح أن هناك مدناً فلسطينية مطوّقة بالجدار؟

إن أجزاء الجدار التي تطوق بعض المدن بجدرانه الشائكة التي يبلغ ارتفاعها ثمانية أمتار، قد حولت عدة مدن فلسطينية إلى غيتو حقيقي (صيغة الجمع). يجدر بنا أن نعرّف أن من يعيشون في الغيتو ينتمون إلى مجموعة إثنية، عرقية أو دينية، وتقوم بالإشراف على مدخل ومخرج الغيتو قوة سياسية ـ عسكرية تنتمي إلى مجموعة أخرى. استخدم مصطلح الغيتو خلال حقبة طويلة للإشارة إلى عزل اليهود في أحياء مغلقة بأماكن مختلفة من أوروبا، والمكان الأكثر شهرة وجد في مدينة وارسو الذي بناه المحتلون النازيون في بولونيا.

حقاً إنها لمفارقات تاريخية، فالإسرائيليون هم الذين يعزلون آلاف الفلسطينيين في الغيتو(صيغة الجمع)، ومدينة بيت لحم التي يبلغ عمرها آلاف السنين هي إحدى هذه المدن. كان التجار خلال قرون يخرجون من القدس في طريقهم لعبور مدينة بيت لحم المتاخمة لها، ويستمرون في السفر على نفس الطريق نحو مدينة الخليل. منذ سنوات عدة كان بإمكان أي شخص التوقف في هذا الطريق، وكان الشارع الرئيسي لمدينة بيت لحم جزءاً منه، إذ كان الناس يتوقفون لتناول الطعام في أحد المطاعم الموجودة بكثرة، أو لشراء تذكار من المدينة التي يقال إن السيد المسيح ولد فيها. إن جدار الفصل الذي

يبلغ ارتفاعه ثمانية أمتار يقطع هذا الطريق في مدخل المدينة. وللدخول إليها لا بد من اجتياز مبنى عسكري حيث الجنود الإسرائيليون هم الذين يقررون من سيسمح له بالدخول. وللدخول في سيارة يتوجب اجتياز بوابة كبيرة في الجدار. أمّا مشياً فيجب على أي شخص اجتياز فتحة على شكل باب للدخول إلى المدينة. وعند الوصول إلى الداخل يمكن للمرء أن يمشي بمحاذاة الجدار، ومن ثم الانتقال إلى الطريق التاريخي، لكن أغلبية المطاعم والمحلات التجارية قد أغلقت أبوابها بسبب وجود جدار آخرعلى بعد ٦٠٠ متر (يحيط بضريح القديسة راكيل)، ولكنه في الوقت الراهن نادراً ما يستخدمه الناس.

وبغية العودة إلى الطريق الأصلي يتعين إجراء دورة عبر المدينة. إذ يمكن مشاهدة الجدار المتقطع وأبراج الحراسة الموجودة كل بضعة أمتار من تلال المدينة.

يوجد في الجزء المطل على مدينة بيت لحم عشرات اللافتات والصور التي تدين الجدار، وفي إحدى الرسوم يمكن مشاهدة فتحة في الجدار ومنظر للأشجار. وفي الجزء الخارجي هناك «مزحة» تثير الاشمئزاز، فقد ألصقت وزارة السياحة الإسرائيلية لافتة تقول بالعبرية والعربية والإنكليزية «السلام عليكم».

٨٣ ـ كيف تبدو السيطرة الإسرائيلية على الضفة؟

شكلت الضفة جزءاً من الانتداب البريطاني حتى عام ١٩٤٨، ثم تولت الأردن مهام إدارتها بين ١٩٤٨ ـ ١٩٦٧، ومنذ ذلك الحين تخضع للاحتلال الإسرائيلي، ونظراً إلى عدم ضمّها رسمياً من قِبَل إسرائيل فإن القوانين الإسرائيلية لا تطبق فيها، وتقوم السلطات

الإسرائيلية باستخدام مزيج من القوانين الأردنية والبريطانية من أيام الانتداب وفترة الإمبراطورية العثمانية أو الإدارة العسكرية الإسرائيلية، وذلك وفقاً لما يلائمها. أما في المستوطنات الإسرائيلية فيطبق القانون الإسرائيلي، وهذا يعني أن هناك قوانين للإسرائيليين وأخرى للفلسطينيين وفقاً للمعايير الإثنية ـ القومية والعنصرية.

مع أن اتفاقيات أوسلو قد أدت إلى تأسيس السلطة الوطنية الفلسطينية إلا أن صلاحياتها محدودة جداً. إن إسرائيل هي التي تتولى إدارة المصادر الطبيعية، بخاصة الأرض والمياه والطرق والحدود. لقد بنيت جميع المستوطنات على أرض فلسطينية استلبت بدون أن يتمكن الفلسطينيون أو السلطة الوطنية من تفادي بنائها. لقد استولت إسرائيل على أكثر من مليون شجرة زيتون ـ «الشجرة» التي تعد رمزاً للفلسطينيين ـ لإقامة المستوطنات.

توجد في الضفة الغربية أكثر من ٤٠٠ دورية عسكرية إسرائيلية، ويتعين على أغلبية الفلسطينيين أن يمرّوا عبرها يومياً في طريقهم إلى العمل، وأحياناً قد يتوجب عليهم الانتظار ساعات، وبعد ذلك قد يجدون أنفسهم مرغمين على السير في الخلاء مئات الأمتار لاستخدام وسيلة نقل أخرى في حال لم تحصل وسيلة النقل التي أقلّتهم على ترخيص بالعبور، وهكذا فإن المسافة التي يمكن اجتيازها بدقائق معدودة قد تستغرق وقتاً طويلاً بسبب وجود الكثير من مراكز التفتيش أو عناد الجنود.

لا شك أن المياه هي أثمن المصادر الطبيعية في الشرق الأوسط بسبب ندرتها، وقد استولت إسرائيل في أعقاب حرب١٩٦٧ على المصادر المائية في الضفة بهدف استغلالها لصالح الإسرائيليين،

وتركت الاستهلاك المخصص للفلسطينيين في مستوى ثانوي. لكن ما يعكس السيطرة الإسرائيلية بصورة واضحة، أنه ـ وعلى الرغم من وجود السلطة الوطنية ـ يجب على كل شخص يرغب بالدخول أو الخروج منها أن يحصل على ترخيص من السلطات الإسرائيلية.

٨٤ ـ لماذا يطلق الإسرائيليون اسم يهودا والسامرة على الضفة الغربية؟

لم تتخذ الحكومة الإسرائيلية قراراً حول مستقبل هذه الأرض خلال الفترة الواقعة بين ١٩٦٧ ـ ١٩٧٧. وجرت العادة أن يتم الحديث عن الضفة بوصفها جزءاً من «الأراضي الخاضعة للإدارة الإسرائيلية» إلى أن تنتهي المفاوضات مع البلدان العربية.

ارتأى أولئك الذين كانوا يعارضون فكرة الضم ضرورة إعادتها بدون شروط مسبقة، وأطلقوا عليها مصطلح «الأراضي المفتوحة»، وما يزال هذا التعبير مستخدماً من الذين يؤيدون التخلي عنها. أعطى الفوز بانتخابات عام ١٩٧٧ قوة دفع جديدة لليمين الإسرائيلي، الذي بدأ الحديث عن «تحرير» الأرضي الخاضعة لسيطرة العرب، وأن الإسرائيليين هم «أصحابها الشرعيون» بذريعة حقوقهم التاريخية فيها.

لقد شكّل انتخاب ميناحيم بيغن الزعيم التاريخي لليمين تطوراً هاماً بالنسبة إلى الإسرائيليين، وتدريجياً باشر الخطاب الرسمي يتغير من خلال اختراق وسائل الإعلام والنصوص المدرسية، وبدئ الحديث عن يهودا والسامرة المملكتين اليهوديتين اللتين ورد ذكرهما في العهد القديم. قبل ثلاثة آلاف عام لم يكن للحدود الوطنية وجود كما تعرف في الوقت الراهن، ومع أن يهودا والسامرة لا تتبع

بالضبط للضفة فقد استخدمت وسائل الإعلام والحكومة هذا المصطلح ضاربين عرض الحائط بقرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢ الذي يطالب إسرائيل بالانسحاب منها.

عدّ بيغين وحزبه الليكود الأراضي التي احتلت خلال الحرب «جزءاً لا يتجزأ» من إسرائيل، كما تم التشديد على ضرورة استعادة الأسماء العبرية الواردة في الكتاب المقدس، على الرغم من عدم ضمها رسمياً إلى دولة إسرائيل. ترك تغيير المصطلحات أثراً سياسياً ونفسياً في نفوس الأجيال الإسرائيلية الجديدة. قد يكون أحد ما على استعداد لإعادة أرض ما لا يعدها ملكاً له، لكنه بالتأكيد لا يمكن أن يتخلى بمحض إرادته عن أرض يشعر أنها ملك له منذ ظهور الكتاب المقدس.

٨٥ ـ هل يستخدم الفلسطينيون مواطنيهم تروساً بشرية؟

لقد استخدم الإسرائيليون هذه الذريعة مجدداً خلال الهجوم الأخير على قطاع غزة في كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٨. اعتاد الإسرائيليون أن يروّجوا للعالم أن الفلسطينيين غير مكترثين بالحياة الإنسانية، وأنهم يضعون النساء والأطفال أمام المدرعات أو في الأماكن الخطرة كي يقتلوهم ويقولوا للعالم: الإسرائيليون يا لهم من أشرار. ليست هذه الأطروحة من اختراع الإسرائيليين. في الحروب غير المتكافئة، عادة ما يسعى الطرف المتفوق عسكرياً إلى الظهور بأنه حريص على حياة المدنيين من الطرف الآخر، وأنه يلاحق فقط الإرهابيين، وهذا ما روّجه الفرنسيون في الجزائر، والأمريكيون في فييتنام.

هذه الأطروحة لها غرضان أساسيان، الأول هو نعت العدو

بالهمجية، والثاني إظهار المقاومة بأنها نتاج عدد من الإرهابيين المتعصبين الذين يتمردون باستخدام السلاح ضد الاحتلال، وأن الشعب ليس له علاقة بالإرهابيين ومستعد لقبول احتلال أرضه من قوة أجنبية يفترض أنها لا ترغب بإلحاق الضرر به، وإنما تعمل لصالحه. نشرت الحكومة الإسرائيلية عام ١٩٩٧ وثيقة حاولت من خلالها أن تظهر النمو والتطور الذي حققه الاقتصاد في الأراضي المحتلة نتيجة لتعاونها مع إسرائيل، وكأن على الفلسطينيين أن يتقدموا بالشكر للاحتلال.

بيد أن الفلسطينيين لا ينظرون بهذ المنظار لأنهم قد يئسوا خلال الأربعين سنة الأخيرة من تنظيم احتجاجات سلمية، التي غالباً ما يتم تفريقها باستخدام العنف من الجيش الإسرائيلي وقتل بعض المتظاهرين. إذاً كان التسويغ الإسرائيلي دوماً ذاته: «لم تطلق النار بغية القتل». إنه استخفاف كبير بالعقل البشري أن يرسم رسام كاريكاتير إسرائيلي متظاهراً فلسطينياً وهو يقفز لتناول الطلقة.

لقد قامت القوات المسلحة الإسرائيلية دائماً بقصف السكان المدنيين، واغتيال الزعماء الفلسطينيين، مع أنها تعلم علم اليقين أن عمليات الاغتيال ستسفر عن قتل المدنيين. سئل مرة قائد القوات المسلحة الإسرائيلية الطيار دان هالوت عن شعوره أثناء إلقاء قنبلة على بناية غاصة بالمدنيين في قطاع غزة، فكان جوابه المقتضب «**أشعر بهزة صغيرة في جناح الطائرة أثناء قذف القنبلة**».

ليس صحيحاً أن الفلسطينيين يستعملون نساءهم وأطفالهم تروساً بشرية، لكن المشكلة تتجلى في أنهم لا يجدون أين يختبئون عند سقوط القنابل. إنه لأمر غريب أن يستخدم الإسرائيليون هذه

الذريعة إذا ما أخذ في الحسبان أن منشآتهم العسكرية موجودة في المدن الكبرى وسط السكان المدنيين، ومستعمرات الضفة والقطاع والجولان السوري. لقد بنوا عشرات المستوطنات المدنية وسط السكان العرب واضعين مواطنيهم في متناول نيران الفلسطينيين.

٨٦ ـ ما طبيعة الاغتيالات الانتقائية التي تقوم بها إسرائيل؟

منذ نشوء حركة التحرير الوطني الفلسطيني، حاولت الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة اغتيال قادة هذه الحركة، واعتقدت أن تصفيتهم ستقود إلى زوال القضية الفلسطينية، وكأنها متوقفة على شخصية محددة. بغضّ النظر عن الملاحقة الخاصة لمنفذي حادثة ميونخ عام ١٩٧٢، قامت إسرائيل باغتيال العديد من زعماء منظمة التحرير الفلسطينية سواء أكانوا متورطين في هجمات انتحارية أم غير متورطين. وعلى الرغم من عدم وجود مسوغات أخلاقية فيما يتعلق بعملية اغتيال شخص بدون محاكمة مسبقة، والمخاطر التي قد تؤدي إلى قتل العديد من المدنيين (هذا ماحدث في كثير من المناسبات) والرغبة في الانتقام، يجب التأمل في جدوى هذه الاغتيالات.

في عام ٢٠٠٣ كتب الضابط الإسرائيلي غال لوفت مقالاً تحت عنوان «منطق الاغتيالات الانتقائية»، أجرى فيه تحليلاً مستفيضاً لهذه الممارسات التي يعتبرها شرعية أثناء الحرب، لكنه استنتج أن الثمن الذي تدفعه إسرائيل جراء الرد الفلسطيني في كثير من الحالات كان باهظاً أكثر من الشخص المغتال، واستشهَد بعملية اغتيال زعيم حزب الله عام ١٩٩٢ في لبنان السيد عباس موسوي، الذي أسفر (حسب لوفت) عن تفجير السفارة الإسرائيلية في الأرجنتين ومقتل تسعة وعشرين شخصاً. وفضلاً عن ذلك فقد أخطأت المخابرات الإسرائيلية

١٩٧٣ حين قتلت مواطناً جزائرياً بدلاً من قتل أحد أعضاء منظمة «أيلول الأسود»، وأكد بأن اغتيال أهم زعماء حركة حماس، الشيخ أحمد ياسين وعبد العزيز الرنتيسي عام ٢٠٠٤ لم يَحُلْ دون انتصار الحركة في الانتخابات بعد عامين.

لا شك أنه أمر مذهل أن تستمر دولة «تعد نفسها ديمقراطية» بتنفيذ أحكام إعدام تعسفية بحق شخصيات سياسية، خارج نطاق القانون، مع العلم أنها لم تقم باغتيال أدولف إيتشمان الذي اختطفته في الأرجنتين بتهمة المسؤولية عن اغتيال يهود أثناء الحكم النازي أكثر من أي فلسطيني، بل منحته الفرصة للدفاع عن نفسه في محاكمة صورية.

٨٧ ـ لماذا يتبادل الإسرائيليون والفلسطينيون الاتهامات بممارسة الإرهاب؟

إن مفهوم الإرهاب مثير للجدل إلى درجة أن الأمم المتحدة لم تتوصل إلى اتفاق حول تعريف يمكن أن تقبله الدول كافة. عموماً يمكن القول إن هدف الإرهاب يكمن في بث الرعب بين العسكريين والمدنيين لدى العدو بدون الأخذ في الحسبان عدد القتلى نتيجة لعملية ما. هذا التعريف لا يشمل الهجوم على البرجين في نيويورك أو القنابل التي ألقيت على هيروشيما وناغازاكي عام ١٩٤٥. كثيراً ما يتم الترويج أن الإرهاب هو سلاح الفقراء غير القادرين على امتلاك سلاح الجيش النظامي. ونتيجة لعدم قدرتها على حيازة الطائرات والمدرعات أو السفن الحربية، اعتادت المجوعات المتمردة أن تستخدم مواد سهلة المنال أو التصنيع.

وفي ما يتعلق بالصراع الفلسطيني - الإسرائيلي، إن عملية زرع قنبلة في سوق شعبية كما تقوم به عدة مجموعات فلسطينية بغية قتل أكبر عدد ممكن من المدنيين بمن فيهم النساء والأطفال لا تخرج عن إطار هذا التعريف، وفي الوقت ذاته فقيام طائرة حربية إسرائيلية بقصف مدينة فلسطينية لقتل المدنيين وبث الرعب بين السكان لا يفلت منه أيضاً. وبما أن كلمة إرهاب تحمل في طياتها مدلولات سلبية فمن الصعب أن يتبناه أي طرف. هناك اتهامات متبادلة، وفي بعض الأحيان يبدو وكأن هناك مبارزة في إحصاء الضحايا. إن من يلجأ إلى هذا النوع من الإرهاب نادراً ما يقر بممارسته، وإن أنصاره غالباً ما يعثرون على ذرائع تبرر فعلهم، ويلقون بالمسؤولية على ما يقوم به الخصم مسبقاً. فالذين يمارسونه يزعمون أن أهدافه نبيلة، ويبررون وقوع الضحايا. إن لوسائل الإعلام دوراً هاماً في استخدام مصطلح «الإرهاب»، فخلال الحرب العالمية الثانية، تم نعت المقاتلين الإيطاليين والفرنسيين واليوغسلافيين والإغريق الذين قاوموا الاحتلال النازي بالإرهابيين من جهة النازيين، لكنهم مازالوا حاضرين في ذاكرة الشعوب بوصفهم أبطالاً وطنيين، وهناك أغنية إيطالية رائعة الجمال تدعى Bella Ciao لتمجيد استشهاد المحاربين في سبيل الحرية، وتحولت آنذاك إلى رمز للنضال ضد الفاشية والنازية. لذا فإن تعريف الإرهاب يتوقف على المنظار الذي ينظر إليه من خلاله.

٨٨ ـ لماذا وقعت مواجهات مسلحة بين حركة حماس ومنظمة التحرير؟

إن ما جرى في قطاع غزة هو بمنزلة صراع على السلطة، لقد تمخض فوز حماس في الانتخابات الفلسطينية في كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٦ عن نشوء ظروف أدت إلى صعوبة التعايش بين رئيس الوزراء

إسماعيل هنية والرئيس محمود عباس الذي ينتمي إلى حركة فتح التي تشكل الأغلبية في منظمة التحرير، وكان الخلاف الأساسي بينهما حول استمرار المفاوضات مع إسرائيل. لقد أقرت اتفاقيات أوسلو أن تشرف منظمة التحرير على مسيرة السلام، وحينذاك كان هناك انسجام بين زعماء فتح ومنظمة التحرير، وفضلاً عن ذلك لا أحد كان يعتقد أن فتح يمكن أن تخسر الأغلبية في منظمة التحرير أمام حركة حماس التي حاولت أن تنتزع شرعية محمود عباس ومنظمة التحرير التي ما تزال تتفاوض مع إسرائيل وكأنها وصي على السلطة.

قررت الولايات المتحدة وإسرائيل والاتحاد الأوروبي عزل حركة حماس، وفرضوا عليها حصاراً اقتصادياً للإسراع في سقوطها، وفي هذا السياق ازدادت الشائعات بأن الولايات المتحدة كانت تعد انقلاباً ضد رئيس الوزراء الفلسطيني إسماعيل هنية لدعم موقف محمود عباس. وبغية تصعيد حدة الأزمة شنت إسرائيل عام ٢٠٠٠ هجوماً عسكرياً على غزة أسفر عن مقتل ما يزيد على ٤٠٠ فلسطيني.

وعلى الرغم من أن كلتا الحركتين تؤكدان أهمية الوحدة الوطنية في مواجهة العدو المشترك (إسرائيل)، وتدعيان أنهما تقومان بحماية الشعب الفلسطيني، فإن الصراع السياسي قد نجم عن حدوث مواجهة مسلحة بينهما. يجب الأخذ في الحسبان أن جميع الحركات الفلسطينية قد بدأت كتشكيلات توفق بين العمل السياسي والمقاومة المسلحة للاحتلال الإسرائيلي، وأن استخدام السلاح يشكل جزءاً من حياتها اليومية. إن الافتقار لوجود دولة ذات تقاليد ديمقراطية ومؤسسات تمثيلية يزيد من صعوبة الحوار السياسي. وهكذا فإن إبطال الخلافات غالباً ما يقود إلى إطلاق النار. لقد توّجت المواجهة المسلحة بتعزيز سلطة حماس في قطاع غزة، وسلطة فتح في الضفة

الغربية، وحدوث قطيعة بينهما، وقيام حكومتين فلسطينيتين، وغياب أي تنسيق بينهما.

٨٩ ـ لماذا عادت إسرائيل إلى احتلال قطاع غزة في كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٨؟

لا يمكن لأية دولة أن تسمح بإطلاق صواريخ على أراضيها وفقاً لما أعلنه رئيس الوزراء الإسرائيلي إيهود أولمرت كي يبرر أسباب احتلال قطاع غزة الرامي إلى تدمير حماس وقوتها العسكرية، التي تطلق الصواريخ على جنوب الأراضي الإسرائيلية منذ سنوات.

سعى الاحتلال إلى تحقيق أهداف عدة، لكن أهمها كان إستراتيجياً، وتمثل في تعميق الانقسام بين فلسطينيَّي الضفة والقطاع، ومما لا شك فيه أن الفلسطينيين المنقسمين سياسياً وجغرافياً لن يتمكنوا من التقدم في مشروع إقامة دولة مستقلة.

وعلى المدى القصير، رمت إسرائيل إلى القضاء على حماس إلا أن ذلك لم يتحقق على الرغم من القصف المكثف على القطاع، لأن المقاومة الإسلامية ليست منظمة إرهابية صغيرة معزولة عن السكان، إنها حركة شعبية تحظى بدعم وتأييد أغلبية السكان في القطاع.

اعتقدت الحكومة الإسرائيلية أن قواتها الجوية والأرضية والبحرية ستقوم بتدمير حماس، أو على الأقل أن الدمار سيقود الفلسطينيين إلى أن يحمّلوا حماس مسؤولية المعاناة الجماعية.

اعتقدت بعض الحكومات الإسرائيلية سابقاً، أن معاناة السكان ستسفر عن حدوث تمرد ضد منظمة التحرير يؤدي إلى إلقاء مسؤولية المعاناة عليها، وتكررت التجربة مع حماس، لكن هذا

المنطق أثبت مرة أخرى أنه خاطئ. إن الشعب الفلسطيني لا يلقي مسؤولية المعاناة الناجمة عن الاحتلال الإسرائيلي على قادته ـ رغم بعض سلوكياتهم التي تنعكس ضدهم ـ وإنما يحمّلها دائماً للمحتل. حاولت الحكومة الإسرائيلية أن تحقق مكاسب جراء الانقسام بين الفلسطينيين بهدف ضرب حماس التي لم تعدها محاوراً شرعياً. وبموازاة ذلك حاولت مؤخراً أن تؤكد رغبتها في الحوار مع المعتدلين في منظمة التحرير بالضفة الغربية، وذلك لتعميق الانقسام القائم بين الفلسطينيين.

ومن جهة أخرى، إنه لأمر أساسي لإسرائيل أن تقول للفلسطينيين إنها القوة الرئيسية في المنطقة، وهي التي تفرض شروطها عند التفاوض. لقد قوبل الغزو بدعم وتأييد إدارة الرئيس بوش وصمت الرئيس باراك أوباما. وقبل يوم واحد من تسلم أوباما للرئاسة انسحبت القوات الإسرائيلية من غزة بدون أن تتمكن من تدمير حماس.

٩٠ ـ لماذا انتقد العالم بشدة الغزو الإسرائيلي لقطاع غزة؟

إن جسامة الهجوم وفظاعته هي التي أثارت موجة عارمة من الانتقادات ضد إسرائيل، إضافة إلى بداهة انعدام التكافؤ في ميزان القوى لدرجة يصعب فيها وصف الغزو بكلمة الحرب. لقد لقي أكثر من ١٣٠٠ فلسطيني حتفه، ٤٠٠ منهم لم يبلغوا سن الرشد مقابل ١٣ إسرائيلياً، فالذريعة الإسرائيلية التي تقول: إن حماس لم تتوقف عن إطلاق الصواريخ، وقد اختطفت جندياً إسرائيلياً ـ شاليط ـ في حزيران/ يونيو ٢٠٠٦ لم تكن كافية لتبرير مثل هذا التدمير في غزة. صحيح أن حماس قد أسرت جندياً إسرائيلياً بدون أن تسمح للصليب

الأحمر بزيارته، لكن السجون الإسرائيلية تعج بأكثر من عشرة آلاف سجين فلسطيني، بينهم وزراء عدة وأكثر من أربعين نائباً في البرلمان منتخبين ديمقراطياً، كما قتلت إسرائيل بين ٢٩ أيلول/ سبتمبر عام ٢٠٠٠ و ٣٠ تشرين الثاني/ نوفمبر عام ٢٠٠٨ ما يقارب ٢٩٩٠ فلسطينياً، مقابل ٢٢ إسرائيلياً اغتالتهم حماس وفقاً لمعلومات نشرتها إحدى منظمات حقوق الإنسان في إسرائيل.

وعلى الرغم من أن أغلبية الصحفيين لم يتمكنوا من الدخول إلى القطاع بسبب الحظر الإسرائيلي، فقد أظهرت الصور الملتقطة أن الهجوم شمل الكثير من الأهداف غير العسكرية بخاصة البرلمان وعدة وزارات، واعترف بذلك الجنرال دان هارد قائلاً: «لم نهاجم الإرهابيين فقط بل حكومة حماس بفروعها كافة، وبعد هذه العملية لن يبقى أي مبنى تابع لحماس». لقد نجم الغزو عن تشريد حوالى مئة ألف شخص، وتدمير أربعة آلاف منزل، وتعرضت عشرات المدارس والمستشفيات لأضرار ودمرت أحياء بأسرها، كما شمل القصف مدارس ومكاتب تابعة للأمم المتحدة، وأشار تقرير نشرته منظمة العفو الدولية إلى أن بعض الأحياء قد تحولت إلى مشاهد ملطخة بالدماء. لقد أثارت هذه المشاهد احتجاجات ساخطة حتى من بعض الأطراف اليهودية. وقد وصف عضو مجلس العموم البريطاني جيرالد كوفمان (يهودي وعضو في حزب العمال البريطاني) الحكام الإسرائيليين بمجرمي الحرب، وأضاف قائلاً: «لقد نشأ كيهودي وقد قدم والداه من بولونيا إلى بريطانيا بصفة لاجئين، ومعظم أقاربه قد أعدمهم النازيون في المحرقة، والحكومة الإسرائيلية الراهنة تستثمر باستهتار وبدون أي رأفة الإدانة غير المتناهية للمسؤولين عن المحرقة النازية كي تسوغ اغتيال الفلسطينيين».

٩١ ـ ما هي مبادرات السلام التي نشأت بعد اتفاقيات أوسلو؟

لقد تميزت اتفاقيات أوسلو بالمفاوضات السرية المباشرة بين الفلسطينيين والإسرائيليين، وقد نجم عنها اغتيال رئيس الوزراء الإسرائيلي إسحاق رابين، واستمرار الاحتلال، وتوسيع المستوطنات، والهجمات الاستشهادية الفلسطينية مما أدى إلى فشلها.

حاول الرئيس الأمريكي بيل كلينتون، وإلى حد ما خلفه جورج بوش الابن إحياء المفاضات بين الفلسطينيين والإسرائيليين نتيجة لإدراكهما أهمية الاتفاقيات في التوصل إلى حل سلمي في الشرق الأوسط.

طرح جورج بوش عام ٢٠٠٢ مبادرة جديدة عرفت باسم «خارطة الطريق»، وقد أعلن عنها في خطاب ألقاه في الرابع والعشرين من حزيران/يونيو في العام نفسه، وعدّت «نقطة تحول نحو إقامة دولتين، دولة إسرائيلية بحدود آمنة، ودولة فلسطينية ديمقراطية قابلة للحياة ومجردة من السلاح». وقد تبنّى المبادرة كل من الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي وروسيا والأمم المتحدة، وحملت فيما بعد اسم «الرباعية»، لكن المبادرة والمفاوضات كانت برعاية البيت الأبيض. سعت الولايات المتحدة وإسرائيل إلى تهميش الرئيس عرفات، وفرضت على الفلسطينيين قائمة طويلة من الشروط للاستمرار في المفاوضات. وقد وردت تلك الشروط في وثيقة نشرت في الثلاثين من نيسان/أبريل عام ٢٠٠٣، من بينها انتخاب محمود عباس رئيساً للوزراء كشرط مسبق لإحراز أي تقدم في المفاوضات والقضاء على جميع أشكال العنف ضد الاحتلال. أما فيما يتعلق بإسرائيل فقد طلب منها على مضض (بحياء) أن تطبق بعض

الإجراءات لتحسين الأوضاع الإنسانية في الأراضي المحتلة.

ومنذ ذلك الحين عقد الكثير من الاجتماعات والمؤتمرات في إطار خارطة الطريق بعيداً عن اتفاقيات أوسلو، إلا أن هذه المبادرات قد جمدت. جرت محاولة لإحيائها في مدينة أنابوليس في الولايات المتحدة الأمريكية في تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠٧ بمبادرة من جورج بوش، وشارك فيها الرئيس الفلسطيني المنتخب محمود عباس ورئيس الوزراء الإسرائيلي إيهود أولمرت. أصدر الطرفان بياناً مشتركاً يطالب بضرورة إيجاد حل للنزاع على أساس قيام دولتين، واستمر الحوار بدون أن يحقق أي نتيجة.

٩٢ ـ لماذا يكثر الحديث عن «حل بقيام دولتين»؟

على الرغم من عدم وجود مرجع مؤكد لهذه العبارة، فقد طرحت في أواسط السبعينيات من الاتحاد السوفياتي والحزبين الشيوعيين الإسرائيلي والفلسطيني وبعض الحركات داخل منظمة التحرير قبل أن توافق عليها المنظمة بالإجماع عام ١٩٨٨. تجلى محور الاقتراح بقبول قرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢، وعودة القوات المسلحة الإسرائيلية إلى حدود الرابع من حزيران/ يونيو عام ١٩٦٧ أي قبل يوم من الحرب. كانت أغلبية الفلسطينيين يعتقدون آنذاك باستحالة إقامة دولة فلسطينية فقط في الضفة والقطاع، وكانوا يتحدثون بزراية عن هذا الحل الذي أطلقوا عليه «الدولة صغيرة»، كما كانت الأكثرية الساحقة من الإسرائيليين ترفض رفضاً قاطعاً فكرة إقامة دولة فلسطينية كيفما كانت.

ومنذ أن وافقت منظمة التحرير على فكرة قيام دولة فلسطينية إلى جانب دولة إسرائيل، ظهرت حركة داخلية ضمن المجتمع

الإسرائيلي، وبدأت مجموعات عدة من دعاة السلام برفع شعار «دولتان لشعبين».

لا شك أن قبول حق الآخر بإقامة دولة قد مثّل انعطافاً هاماً بالنسبة إلى المجتمعين، لكن مشكلة العبارة تكمن في التأويلات المتعددة لها. الشعار بالنسبة إلى الفلسطينيين واضح جداً، ويعني دولة فلسطينية في الضفة والقطاع وعاصمتها القدس الشرقية، وذلك في إطار قرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢، باستثناء بعض اللمسات الصغيرة على الحدود. أما بالنسبة إلى الإسرائيليين فإنها أكثر تعقيداً. لقد رفع اليسار الإسرائيلي هذا الشعار خلال فترة طويلة، ويحظى اليوم بقبول جزء كبير من الطبقة السياسية بما فيها تيارات منتمية إلى اليمين، لكن السؤال الذي يطرح نفسه هو: كيف يؤول اليمين الإسرائيلي فكرة حلّ «الدولتين»، ولا سيما أنه يرفض تفكيك المستوطنات والانسحاب من القدس الشرقية. وبالتوافق مع الموقف الإسرائيلي، تطرح حكومة الولايات المتحدة حل «الدولتين» بدون تحديد حدودهما أو اعتبار قرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢ كأساس لحل النزاع.

٩٣ ـ ما هي الحدود التي تقترحها إسرائيل لحل النزاع مع الفلسطينيين؟

كانت قضية حدود الدول اليهودية موضع جدال حاد ومتقلّب منذ تأسيس الحركة الصهيونية، ونتيجة لتطور فكرة العودة إلى أرض «الميعاد» موطن الأسلاف، برزت مشكلة الحدود البرية، مع أنه قديماً لم تكن هناك حدود ولا دول بالمفهوم الحديث، وكانت فكرة أرض الميعاد في العهد القديم غامضة. لم يتحدث تيودور هيرتزل حين كتب النص الخاص بدولة اليهود عن قضية الحدود، وقد خصص فيه

فصلاً للسؤال «فلسطين أو الأرجنتين»، وكرر تعبير أرض الميعاد بدون أن يذكر حدوداً معيّنة، كما لم يحددها في الوثيقة النهائية للمؤتمر الصهيوني الأول عام ١٨٩٧.

فالعودة إلى أرض الأسلاف قد تعني فلسطين الأرض التي مرّ فيها الشعب اليهودي، أو ممالك داوود وسليمان عام ١٠٠٠ قبل الميلاد. وقد ضمنتها الحركة الصهيونية ـ عندما قدمت الخرائط للدول الكبرى بحثاً عن دعم لمشروعها ـ أراضي شاسعة تمثل في الوقت الراهن جزءاً من لبنان وسورية والأردن، وفيما بعد قام زعماؤها بإجراء تعديلات عليها، ثم قبلوا التقسيم الذي أقرته الأمم المتحدة، وقاموا إبان حرب تأسيس دولتهم بتوسيع الأرض التي كانت مخصصة لهم. إن إنشاء الدولة لم ينه النقاش بشأن الحدود، بل أدى إلى تجميده لأن الأمم المتحدة قد اعترفت بحدود هدنة ١٩٤٩. تجدد النقاش في أعقاب حرب ١٩٦٧ وازداد تعقيداً باحتلال الضفة والقطاع والقدس الشرقية. لم تعد القضية موضع جدال حول ما ورد في العهد القديم، أو المكان الذي مرّ فيه العبرانيون، لقد باتوا أصحاب أراض يعدّها الكثير من اليهود جزءاً لا يتجزأ من التاريخ اليهودي، كما أنهم ليسوا على استعداد للتخلي عنها.

إن توسيع المستوطنات هو أكبر دليل على عدم وجود مفهوم محدد بشأن الحدود، ويعني احتلال أراض جديدة توافقاً مع النظرة الإستراتيجية للصهيونية التي لا ترفض إعادتها وحسب، بل تطلب بضمها إلى دولة إسرائيل.إن حدة النقاش الداخلي بشأن الأراضي التي احتلتها إسرائيل عام ١٩٦٧ قادت الحكومات الإسرائيلية جميعها بعد ذلك التاريخ إلى عدم طرح فكرة الحدود النهائية لدولة إسرائيل.

٩٤ ـ هل ترغب البلدان العربية بإقامة السلام مع إسرائيل؟

رفضت البلدان العربية قرار التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة عام ١٩٤٧ ، كما رفضت قيام دولة إسرائيل، لكن هذا الرفض لم يتم بالإجماع، وجرت محاولات من بعض الزعماء العرب لقبول الدولة اليهودية. إن صعود زعماء القومية العربية في مصر وسورية قد زاد من حدة الأصوات الرافضة. وبعد حرب ١٩٦٧ عقدت ثماني دول عربية اجتماعاً في الخرطوم، صدرت إثره وثيقة من سبع نقاط تضمنت مبادئ البلدان العربية: لا للسلام مع إسرائيل، لا للاعتراف بها، ولا للمفاوضات معها، وعرفت بقمة اللاءات الثلاثة. وقد عدّتها إسرائيل برهاناً آخر على عدم استعداد البلدان العربية للقبول بوجودها في المنطقة. على العموم كان ذلك صحيحاً، إلا أن تغيرات جوهرية قد طرأت في الشرق الأوسط منذ ذلك الحين بعد وفاة زعماء القومية العربية، وتحول بعض البلدان العربية إلى حلفاء للولايات المتحدة الأمريكية، كما وقّع بعضها الآخر اتفاقيات سلام مع إسرائيل (مصر والأردن)، ولم يعد هناك أي بلد عربي يطرح فكرة تدمير إسرائيل، وفضلاً عن ذلك هناك قلق لدى بعض الزعماء العرب إزاء تنامي النفوذ الإيراني الذي قد يزعزع استقرار أنظمتهم.

عقدت في عام ٢٠٠٢ قمة الجامعة العربية في بيروت، وهناك نوقشت مبادرة السلام السعودية التي اقترحت إنهاء النزاع العربي ـ الإسرائيلي، وطرح خلالها موضوع الاعتراف بدولة إسرائيل وتطبيع العلاقات معها. ركزت المبادرة على بدء المفاوضات استناداً إلى قرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢، وانسحاب القوات الإسرائيلية من الأراضي الفلسطينية المحتلة بما فيها القدس الشرقية والجولان

السوري، وإقامة دولة فلسطينية في الضفة والقطاع، إضافة إلى إيجاد حل عادل لمشكلة اللاجئين. تضمّنت المبادرة بوضوح إمكانية إنهاء النزاع العربي ـ الإسرائيلي وإقامة علاقات طبيعية مع إسرائيل في إطار السلام الشامل كي يتسنى لإسرائيل والبلدان العربية العيش بسلام وحسن جوار، وقد وافقت البلدان العربية على المبادرة في قمة الرياض عام ٢٠٠٧ إلا أنها لم تستأثر بأي ردّ إسرائيلي طوال الفترة ما بين ٢٠٠٢ ـ ٢٠٠٩.

٩٥ ـ لماذا الحضور الإيراني البارز في النزاع؟

على الرغم من أن إيران ليست بلداً عربياً، لكن أهميتها السياسية تاريخياً في المنطقة تجعلها جزءاً من النزاع العربي ـ الإسرائيلي. كانت إيران حتى عام ١٩٧٩ ترزح تحت حكم نظام ملكي دكتاتوري حليف للولايات المتحدة، وقد احتفظ بروابط وثيقة مع إسرائيل منذ الستينيات. في عام ١٩٦١ قام رئيس الوزراء الإسرائيلي بن غوريون بزيارة رسمية إلى طهران، وتعزز إثرها التحالف القائم بين البلدين لمواجهة العدو المشترك المتمثل بالقومية العربية. وفي عام ١٩٦٣ طالب الإمام الخميني (بصفته زعيماً للمعارضة) الشاه رضا بهلوي بقطع العلاقات مع إسرائيل، واتهمه عام ١٩٧٣ بتحويل إيران إلى قاعدة عسكرية لخدمة إسرائيل. وبغية استيعاب الرفض الشعبي الإيراني نحو إسرائيل لا بد من الأخذ في الحسبان المساعدة التي قدمها الإسرائيليون للشاه في تطوير قواته المسلحة، وتعاون الموساد مع المخابرات الإيرانية (السافاك) التي مثلت خلال فترة طويلة رمزاً للقمع في إيران، وكانت مسؤولة عن ملاحقة آلاف المواطنين، إضافة إلى كونها المؤسسة الأكثر إمقاتاً في نظام الشاه.

وبعد الثورة مباشرة، قامت الجمهورية الإسلامية بقطع العلاقات مع إسرائيل، مما أدى إلى انتشار موجة من التعاطف تجاه الثورة في أرجاء الوطن العربي والعالم الإسلامي كافة. وعلى الرغم من أن الإيرانيين يعتنقون المذهب الشيعي بينما تعتنق أغلبية العرب المذهب السني فقد نشأت حركات إسلامية كثيرة متأثرة بنشوة انتصار الثورة الإيرانية، وكان أهمها حزب الله في لبنان. لقد رفعت الثورة الإيرانية راية القضية الفلسطينية، وقدمت مختلف أشكال الدعم للحركات الإسلامية، وبخاصة حركة حماس والجهاد الإسلامي. أخذ الحضور الإيراني بالتصاعد مع تراجع الدعم العربي للفلسطينيين، وبات هذا الحضور جلياً في وسائل الإعلام منذ أن شكك الرئيس الإيراني محمود أحمدي نجاد بصحة المحرقة النازية لليهود خلال الحرب العالمية الثانية، وشرع بتنظيم مؤتمرات مع شخصيات معروفة بإنكارها للمحرقة، كما هدد بالهجوم على إسرائيل. إن الكثير من الفلسطينيين الذين يقبلون المساعدات الإيرانية ينتقدون النظام الإيراني ويعدون مواقفه مضرة بمصالح العرب والمسلمين، وبهذا الصدد يؤكد المفكر الفلسطيني الإسرائيلي الجنسية عزمي بشارة أن العرب والفلسطينيين الذين ينفون المحرقة يقدمون أفضل هدية للعنصرية الأوروبية، ويتساءل: ما هي المصلحة العربية والإسلامية في إنكار المحرقة وتبريء أوروبا من إحدى أكثر صفحاتها سواداً في التاريخ؟ لقد أسهمت مواقف أحمدي نجاد أيضاً في تشديد حدة اللهجة الإسرائيلية ضد إيران.

٩٦ ـ ماذا يريد الفلسطينيون؟

إن وضع الفلسطينيين معقد للغاية جراء الشتات الذي تعرضوا له. مع مرور الزمن بدأت تبرز جماعات فلسطينية ذات مصالح

متناقضة بسبب تجاربها والواقع الذي تعيشه. هناك من يعيشون داخل دولة إسرائيل ولم يتخلوا عن ديارهم، يتحدثون العبرية ويتعاملون يومياً مع الإسرائيليين، ويكمن هدفهم الأساسي في أن تتحول إسرائيل في يوم ما إلى دولة ديمقراطية. ليس لواقعهم وأمنياتهم وطموحاتهم نقاط تلاقي مع أولئك اللاجئين في لبنان الذين خسروا كل شيء. وفي موازاة ذلك، فإن للذين يعيشون تحت الاحتلال في الضفة والقطاع أهدافاً ومرامي مغايرة عن أولئك المشتتين في أنحاء العالم. إن التصور الجماعي لمعظم الفلسطينيين يتجلى في العودة ستين عاماً إلى الوراء، يفضلون لو أن إسرائيل غير موجودة وألا يكون هناك يهود في فلسطين، وأن يتكمنوا من العودة جميعاً إلى الفردوس المفقود، لكن أرض أحلامهم لم تعد موجودة، لقد تم تدمير ذلك العالم الذي يحلمون به. ومع أن الكثير من المدن ما زالت قائمة، إلا أنها قد تغيرت كلياً، وأن وجود أكثر من ستة ملايين يهودي بات حقيقة غير قابلة للارتداد. إن أغلبية الفلسطينين يقبلون بوجود إسرائيل، ليس حباً، بل لأنها حقيقة، ولأن هناك فرقاً بين ما يتمناه المرء وما يمكن أن يقوم به. هذه هي النقطة المحورية بين الفلسطينيين أنفسهم بشأن اللاجئين. إنها قضية حساسة ومثيرة للنزاع، كما أن إسرائيل لن توافق على عودتهم، وفي الوقت ذاته فإن الزعماء الفلسطينيين يعلمون أن عليهم أن يستجيبوا لمطالب ملايين اللاجئين الذين طردوا من أرضهم ويحلمون بالعودة إليها. إن احتلال الضفة والقطاع لأكثر من أربعين عاماً قد حول المطالبة بإقامة دولة مستقلة في هذه الأراضي إلى طموح أساسي للفلسطينيين. اعتاد الفلسطينيون أن يطلقوا على هذا الطموح «الالتزام التاريخي»، ولا سيما أنهم باتوا مستعدين للقبول بدولة فقط في ٢٢ ٪ مما كانوا يسمونه «فلسطين التاريخية».

٩٧ ـ ماذا يريد الإسرائيليون؟

يقول الإسرائيليون منذ أن قامت دولة إسرائيل، إنهم يريدون السلام مع جيرانهم العرب، وهم مطوقون بعالم عدائي لا يقبلهم وبالكاد يحتملهم، ويعلنون دوماً أنهم يرغبون بالسلام. يحمل الإسرائيليون عقدة الضحية الأزلية، ويضرمون نار المحرقة يومياً مما يحول دون إقرارهم بأن شعباً آخر يمكن أن يعاني تجاه قضيتهم. لديهم القناعة بأنهم دعاة سلام، وأن الطرف الآخر يقوم بقرع طبول الإبادة. ما زالوا يؤمنون بأسطورة الشعب المختار الذي يتميز بأخلاقية متفوقة في مواجهة عالم يكنّ لهم البغضاء، وأن هناك شعباً يستجوبهم يومياً، ويقول لهم إنهم قد تحولوا إلى شعب مغتصب.

ما زالوا يعتقدون أنهم قد حوّلوا الصحراء إلى واحة، ولولا وجودهم لاستمر المكان راسياً في العصور الوسطى. من الصعب عليهم أن يتفهموا أنهم مغتصبون وما قد يسبّبه استمرار الاحتلال، ولا يريدون أن يكلفهم الاحتلال أي ثمن. وإذا تمرد الفلسطينيون يظنون أن ذلك يرجع إلى ماهيتهم العربية المعادية لليهود. إن أغلبية الإسرائيليين يرغبون ألا يكون الفلسطينيون موجودين هناك، وألا يطالبون بأرضهم أو أن تذكر كلمة اللاجئين. أمنيتهم الأولى أن يتنازل الفلسطينيون عن كل شيء، لدرجة أنهم يطالبون بنسيان فكرة العودة إلى أرضهم بعد أن اضطروا إلى التخلي عنها فقط منذ ٦٠ عاماً، في الوقت الذي ترفع فيه الصهيونية راية العودة لليهود بعد ألفي عام. حقاً إنها مفارقة غريبة.

حاولوا خلال عقود عدة عدم الاعتراف بالهوية الوطنية للفلسطينيين، وادعوا أنهم غير موجودين، أو كما اعتادت غولدا مائير أن تقول: «فلسطينيون يوق»، وتعني باللغة التركية أنهم غير

موجودين. استخدمت كلمة يوق بازدراء، غير أنهم اضطروا إلى التنازل نتيجة للوقائع، مع أن الكثير منهم ما زالوا يحلمون بتكرار تجربة ١٩٤٨ لطرد الفلسطينيين كلّهم. يعيش الإسرائيليون تناقضات دائمة بين مطالبهم وحقوقهم التي يعدونها شرعية، لكنها تتعارض مع مطالب شعب لا ينبغي أن يكون له مطالب أو حقوق وفقاً للنظرية الإسرائيلية.

٩٨ ـ هل سيتمكن باراك أوباما من حل النزاع الإسرائيلي ـ الفلسطيني؟

يسود الاعتقاد منذ تفكك الاتحاد السوفياتي أن الولايات المتحدة الأمريكية هي الدولة الوحيدة المؤهلة لتحقيق السلام بين الإسرائيليين والفلسطينيين. هناك تناقض حول جعل القوة العظمى الأولى وسيطاً محايداً لأنها الحليف الرئيسي لدولة إسرائيل، فقد اتسمت السياسة الخارجية الأمريكية، سواء أكان في عهد الحكومات الجمهورية أو الديمقراطية بالتحالف المعلن للولايات المتحدة مع إسرائيل. إن الغزو الأمريكي أثناء حكم الرئيس بوش لأفغانستان عام ٢٠٠١، وللعراق عام ٢٠٠٣، الذي قوبل برفض كبير على المستوى الدولي قد أسفر عن ممارسة ضغط إضافي على الرئيس أوباما عند تسلمه السلطة في أمريكا. كان العالم يأمل أن يكون رئيساً مختلفاً لأن موقفه المعارض للحرب في العراق وخطابه التجديدي قد ولّد آمالاً بالتغيير. وتساءل الجميع حول الموقف الذي سيتبناه تجاه النزاع الفلسطيني ـ الإسرائيلي، على الرغم من أنه لم يضمر في مؤتمرات صحفية متعددة ميوله نحو إسرائيل. وقد لاحظ العالم صمته أثناء الغزو الإسرائيلي لقطاع غزة في كانون الأول/ ديسمبر عام ٢٠٠٨.

وبعد تسلمه الرئاسة، قام بزيارة رسمية إلى القاهرة، وألقى خطاباً عدّه العالم بداية جديدة بين الولايات المتحدة والعالم الإسلامي، واستخدم فيه لغة مختلفة عن سلفه، نوّه فيه إلى النزاع الفلسطيني ـ الإسرائيلي. وبغية إبعاد أي نوع من الشبهات، أكد في بدايته عمق الروابط بين بلاده وإسرائيل، موضحاً أن هذه الروابط غير قابلة للانهيار، إلا أنه أشار إلى معاناة الشعب الفلسطيني ـ مسلمين ومسيحيين ـ وكفاحه من أجل وطنه، وانتقد الهوان الذي يتعرض له يومياً نتيجة للاحتلال.

السؤال الذي يطرح نفسه هو: هل لدى باراك أوباما الرغبة الشخصية في أن يلعب دور الوسيط بين الفلسطينيين والإسرائيليين، وهل تسمح له مراكز القوة في الولايات المتحدة أن يقوم بذلك.

٩٩ ـ ما هي التواريخ الأكثر أهمية لفهم النزاع الفلسطيني ـ الإسرائيلي؟

إذا كان على المرء أن يرسم خطاً تاريخياً لهذا النزاع الذي بدأ منذ ١٠٠ عام، قد يعثر على العديد من نقاط الخلاف بين اليهود والعرب قبل إنشاء دولة إسرائيل في ١٤ أيار/مايو ١٩٤٨، وقليل من التلاقي بين الإسرائيليين والفلسطينيين منذ ذلك التاريخ. مثّل قرار الأمم المتحدة بشأن تقسيم فلسطين في ٢٩ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٧ بدون أي شك المفتاح الرئيسي في فهم النزاع بين الشعبين، إذ قررت الأمم المتحدة بوصفها هيئة دولية تقسيم فلسطين، مستندة إلى أسس إثنية ـ قومية، وذلك لإيجاد حلّ للمواجهات المتصاعدة بين المجتمعين، وانطلقت من الفرضية التالية: لا يمكن لكلا الشعبين أن يعيشا معاً، لكن الحل لم يكن كذلك فلم يجلب السلام ولم يحقق

غرضه. لسنا بصدد التشكيك بقرارات اتخذتها منظمات دولية، بل ليتسنى لنا فهم الديناميكية التي انفلتت منذ ذلك التاريخ الذي نجم عنه قيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨ وطرد الفلسطينيين.

كان الفلسطينيون والإسرائيليون يجهلون بعضهم البعض حتى حرب الخامس من حزيران/يونيو، ليس فقط فيما يتعلق بنظرتهم إلى العالم، وإنما أيضاً على أرض الواقع. وبغضّ النظر عن بقاء أقلية عربية متذرية داخل دولة إسرائيل، فلم يكن هناك علاقة مباشرة بينهم، كان كل طرف يعرف القليل عن الآخر، لكن احتلال الضفة والقطاع قد ولّد الثنائي: «مستعمِر ومستعمَر»، كما أدى إلى حدوث تحول في اللاعلاقة (علاقة غير موجودة) بين ١٩٤٨ ـ ١٩٦٧ إلى العلاقة النموذجية المعروفة «دولة احتلال، وشعب تحت الاحتلال».

التاريخ الثاني هو ١٩٩٣، لقد جلبت اتفاقيات أوسلو نسائم من الأمل، لأن هذا التاريخ يمثل اعتراف كلٍّ من الفلسطينيين والإسرائيليين بالآخر لأول مرة. فبعد عقود من التشهير اعترف كلُّ طرف بالآخر بوصفه محاوراً شرعياً، وبدا هذا وكأنه نهاية للماضي، على الرغم من فشله في نهاية المطاف.

ما يزال هناك تاريخ جديد، ألا وهو الذي سيجلب بريق التعايش بين الشعبين، إلا أنه لم يطل بعد.

١٠٠ ـ هل السلام والتعايش ممكن بين الإسرائيليين والفلسطينيين؟

إنه سؤال الملايين. كيف يمكن التوفيق بين المصالح والمطامح، والحقوق المتضادة فيما بينهما؟. إن ما يسود في الوقت الراهن هو العنف، وعملياً يستحيل التفكير في التعايش السلمي. لقد فتحت

اتفاقيات السلام في عام ١٩٩٣ نافذة من الأمل، لكنها سرعان ما أغلقت لأسباب عديدة، وذلك وسط مهاترات متبادلة بشأن فشلها. ما زال جوهر النزاع يدور حول القضية الوطنية. هناك شعبان يطالبان بالأرض نفسها. لقد أثبت القرن العشرون أنه لا يمكن لأيٍّ منهما التخلص من الآخر ولو أراد ذلك. إنهما محكومان بالعيش معاً. هناك عنصر لا يزال حاضراً في مكان ما من الضمير الجماعي: لقد تعايش اليهود والمسلمون والمسيحيون بسلام خلال قرون عندما كانوا مجتمعات دينية حين لم يكن لهم طموحات قومية.

وإذا كان صحيحاً أن كلمة «السلام» ترفع بوصفها شعاراً، وعلى الرغم من ظهورها من حين إلى آخر، فالسؤال هو كيف؟. هل هم على استعداد لتحويل سيوفهم إلى أغصان زيتون، وأن يتخلوا عن رفع سيف شعب ضد شعب آخر، كما قال النبي أليشع؟. يبدو أن لا أحد قد عثر حتى الآن على الصيغة. هناك حقيقة مؤكدة: إذا استمر احتلال الضفة والقطاع، فالسلام مستحيل. لا يمكن لإسرائيل أن تستمر في الاحتلال الأزلي، كما لا يصح أن يعتقد الإسرائيليون أن العرب سيقبلون الاحتلال إلى ما لانهاية.

هل يمكن لتدخل من الأمم المتحدة أن يفصل بين الشعبين، وأن يضع حدّاً للمواجهات؟ هل يمكن الفصل بينهما؟ وليس أكيداً الاعتقاد أن إنهاء الاحتلال سيمكّن الشعبين من التعايش السلمي بصورة سحرية. لكن يمكن لكلا الشعبين أن يتأملا العبارة القائلة «محرقتكم نكبتنا».